



.T. C
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
LİSANSÜSTÜ EĞİTİM ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM DALI
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ BİLİM DALI (ARAPÇA)

NESEFÎ TEFSİRİ'NDE SİYÂK DELÂLETİ BAKARA SÛRESİ ÖRNEĞİ

YÜKSEK LİSANS TEZİ

OSMANCAN EMİN

DANIŞMAN: DOÇ. DR. AVNULLAH ENES ATEŞ

YALOVA
AĞUSTOS 2024



جامعة يالوفا
معهد الدراسات العليا

قسم العلوم الإسلامية الأساسية

دلالة السياق في تفسير النسفي سورة البقرة أنموذجا

رسالة الماجستير

عثمانجان أمين
218122014

المشرف: الدكتور المساعد، عون الله أنس عاطش

يالوفا
أغسطس 2024

التعهد بالالتزام بالقواعد الأخلاقية العلمية

أتعهد وأصرح بأنني قد جهزت رسالتي هذه بعنوان: "دلالة السياق في تفسير النسفي سورة البقرة أنموذجاً" وفقاً لقواعد كتابة الرسالة الخاصة بمعهد الدراسات العليا في جامعة يالوفا، وأنني قد حصلت على البيانات والمعلومات والوثائق الموجودة فيها في إطار القواعد الأكاديمية والأخلاقية، وقد قدمت جميع المعلومات والوثائق والتقييمات والنتائج وفقاً للقواعد العلمية والأخلاقيات التي أشرت إليها، وعزوت كل ما نقلته فيها إلى مصادره ومراجعته المستفاد منها خلال دراسة الرسالة، دون القيام بإجراء أي تغيير في البيانات المنقولة، وأصرح بأن العمل الذي قدمته في هذه الرسالة أصلي، وأتحمل كامل المسؤولية القانونية التي قد تنشأ في حالة ثبوت عكس ما صرحت به.

التوقيع

عثمانجان أمين

ETİK BEYAN

Yalova Üniversitesi Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Tez/Proje Yazım Kupaları'na uygun olarak hazırladığım “ **NESEFÎ TEFSİRİ'NDE SİYÂK DELÂLETİ BAKARA SÛRESİ ÖRNEĞİ** ” başlıklı bu tez çalışmada; tez içinde sunduğum verileri, bilgileri ve dokümanları akademik ve etik kurallar çerçevesinde elde ettiğimi, tüm bilgi, belge, değerlendirme ve sonuçları bilimsel etik ve ahlak kurallarına uygun olarak sunduğumu, tez çalışmada yararlandığım eserlerin tümüne uygun atıfta bulunarak kaynak gösterdiğimi, kullanılan verilerde herhangi bir değişiklik yapmadığımı, bu tezde sunduğum çalışmanın özgün olduğunu bildirir, aksinin tespiti halinde doğabilecek her türlü hukuki sorumluluğu kabul ettiğimi taahhüt ve beyan ederim.

İmza

Osmancan EMİN

الشكر والتقدير

انطلاقاً من قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" أتوجه بالدعاء الى الله بالرحمة والمغفرة لوالدتي الكريمة رحمها الله التي صبرت في حياتها على اغترابي في طلب العلم منذ نعومة أظفاري، وكانت لي سنداً دائماً في حنانها ودعائها، فجزاها الله عني خير ما جزى والدته عن ولدها، كما أتوجه بخالص الشكر لوالدي الكريم، الذي كان السبب لدخولي في دراسة العلوم الشرعية، والذي كان حريصاً أشد الحرص على أن يخرج كل أبنائه دعاءً إلى الله، فأسأل الله أن يحقق له ذلك وأن أكون كما أراد.

ثم أتوجه بالشكر الخاص إلى الدكتور المشرف عون الله أنس عاطش جزاه الله خير الجزاء، الذي كان حريصاً على إسداء النصيحة في سبيل إنهاء البحث في أقرب وقت، وقد بذل من الجهد ما ساعدني على إتمام المناقشة بآراء الله به. كما أتوجه بالشكر إلى لجنة المناقشة المتمثلة بأصحاب الفضيلة الدكتور عثمان سعيد أوغلو الذي أتشرف أن يكون ضمن أعضاء لجنة المناقشة، فقد كان خير سند ومعلم في مرحلة الدراسة مرحلة المواد، وفضيلة الدكتور إحسان دلال، الذي شرفني بالموافقة على الانضمام للجنة المناقشة، فجزاهما الله خير الجزاء.

كما أشكر الدولة التركية عامة وجامعة يالوفا خاصة لفتحها المجال للطلاب العرب لإكمال مسيرتهم العلمية.

أغسطس - 2024

عثمانجان أمين

فهرس المحتويات

i	التعهد بالالتزام بالقواعد الأخلاقية العلمية
ii	الشكر والتقدير
iii	فهرس المحتويات
vii	الرموز والاختصارات
viii	الملخص
ix	ÖZET
x	ABSTRACT
11	المقدمة
17	الفصل التمهيدي: ترجمة الإمام النسفي وشخصيته العلمية
18	المبحث الأول: ترجمة الإمام النسفي وشخصيته العلمية
18	المطلب الأول: إسمه ونسبته وكنيته ولقبه
19	المطلب الثاني: مولده ونشأته وأسرته
20	المطلب الثالث: رحلاته
20	المطلب الرابع: شيوخه
21	المطلب الخامس: تلاميذه
22	المطلب السادس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه
25	المطلب السابع: تدريسه وتأليفه
25	المطلب الثامن: كتابه في علم التفسير
25	المطلب التاسع: مصنفاته في علم التوحيد والعقائد
26	المطلب العاشر: كتابه في السنة النبوية
26	المطلب إحدى عشر: مصنفاته في أصول الفقه

المطلب الاثنا عشر: مصنفاته في الفقه وفروعه.....	27
المطلب الثالث عشر: مذهبه في العقيدة.....	29
المطلب الرابع عشر: مذهبه في الفقه.....	29
المطلب الخامس عشر: وفاته.....	30
المبحث الثاني: التعريف بتفسير الإمام النسفي.....	31
المطلب الأول: توثيق عنوان التفسير وصحة نسبته الى الإمام.....	31
المطلب الثاني: سبب تأليف التفسير.....	31
المطلب الثالث: مصادر التفسير.....	32
المطلب الرابع: مميزات التفسير.....	37
المبحث الثالث: منهج الإمام النسفي في التفسير.....	39
المطلب الأول: تفسيره القرآن بالقران.....	40
المطلب الثاني: تفسيره القرآن بالسنة.....	41
المطلب الثالث: تفسيره القرآن بأقوال الصحابة.....	42
المطلب الرابع: تفسيره القرآن بأقوال التابعين.....	43
المطلب الخامس: تفسيره القرآن بالرأي.....	45
المطلب السادس: عنايته بالمناسبات بين الآيات.....	46
المطلب الثامن: عنايته بأسرار التعبير في الآيات.....	47
المطلب التاسع: خوضه في جانب اللغة.....	48
المطلب إحدى عشر: اهتمامه بذكر أسباب النزول.....	54
المطلب الاثنا عشر: موقفه من الإسرائيليات.....	55
المطلب الثالث عشر: خوضه في مسائل الفقه.....	57
المطلب الرابع عشر: تقريره في مسائل العقيدة مذهب أهل السنة والرد على مذاهب من خالفهم من الفرق الضالة.....	58

المطلب الخامس عشر: عنايته في أصول الفقه.....	59
الفصل الأول: دلالة السياق في التفسير	61
المبحث الأول: تعريف دلالة السياق.....	62
المطلب الأول: تعريف الدلالة لغة.....	62
المطلب الثاني: تعريف الدلالة اصطلاحاً	63
المطلب الثالث: تعريف السياق لغة.....	64
المطلب الرابع: تعريف السياق اصطلاحاً	65
المطلب الخامس: تعريف مصطلح دلالة السياق.....	66
المبحث الثاني: أنواع دلالة السياق	68
المطلب الأول: دلالة السياق في الآية	68
المطلب الثاني: دلالة السياق في مقطع من الآيات.....	69
المطلب الثالث: دلالة سياقية في مجموع السورة	70
المطلب الرابع: دلالة السياق في مجموع القرآن.....	74
المطلب الخامس: قواعد دلالة السياق في التفسير	77
المبحث الثالث: أهمية دلالة السياق ومكانتها في التفسير	80
المطلب الأول: دلالة السياق عند المفسرين.....	80
المطلب الثاني: أهمية دلالة السياق ومكانتها في التفسير	83
المطلب الثالث: أبرز المفسرين الذين اعتنوا بدلالة السياق	86
الفصل الثاني: مظاهر تطبيقات دلالة السياق من خلال تفسير الإمام النسفي سورة البقرة أنموذجاً	92
المبحث الأول: مظهر دلالة السياق في ألفاظ الآيات وأساليب التعبير فيها.....	93
المبحث الثاني: مظهر دلالة السياق في كشف المعنى المراد	109
المبحث الثالث: مظهر دلالة السياق في ترجيح الأقوال	112

المبحث الرابع: مظهر دلالة السياق في رد على مذهب أهل البدعة والضلالة	113
المبحث الخامس: مظهر دلالة السياق في ترجيح بعض القراءات	115
المبحث السادس: مظهر دلالة السياق في ترجيح بعض أسباب النزول	115
المبحث السابع: مظهر دلالة السياق في تعيين أن سبب النزول لا يعني تخصيص الآية به	116
المبحث الثامن: مظهر دلالة السياق في إبراز تناسب الآيات وترباطها	117
الخاتمة	120
المصادر والمراجع	122
السيرة الذاتية	127

الرموز والاختصارات

الرموز

﴿ 》	: إشارة ما بين هذا القوسين آية
« »	: إشارة ما بين هذا القوسين حديث
∞	: اللانهاية
$\neq$	: عدم المساواة

الاختصارات

إلخ	: إلى آخره
ب. م.	: بعد الميلاد
ت.	: تاريخ الوفاة
ج.	: جمع
د. م.	: دون مكان النشر
د. ن.	: دون ناشر \ لا يوجد دار نشر
ص.	: رقم الصفحة
صلعم	: صلى الله عليه وسلم
ض	: رضي الله عنه / عنها..
ط.	: رقم الطبعة
ق.	: ورقة
ق. م.	: قبل الميلاد
مج.	: مجلد
ن.	: دار النشر
هـ	: هجري

دلالة السياق في تفسير النسفي سورة البقرة أنموذجا

الملخص

تتحدث هذه الرسالة عن دلالة السياق التي لها مكانة عظيمة وقيمة عالية في فهم القرآن الكريم، ويوضع رسم الإطار المفاهيمي لدلالة السياق، وسيتم تحديد العناصر التي تتكون منها الدلالة السياقية وفحصها. وبالطبع أثناء القيام بدراسة ذلك كله ستنتم محاولة تحديد الدلالة السياقية من خلال تفسي الإمام أبي البركات النسفي، المسمى باسم مدارك التنزيل وحقائق التأويل والإمام النسفي ويتخذ من سورة البقرة بعض الآيات النموذجية التي تكشف عن أهمية دلالة السياق. ويحاول أن يبين أن بعض الآيات قد تكون مفتوحة على تفسيرات مختلفة، ولكن الدلالة السياقية تلقي الضوء على أحد هذه التفسيرات المختلفة وتعيّنه وبهذا المعنى فإن له أهمية كبيرة في تحديد المعنى الحقيقي للآية. وسيتم ذكر التفسير العلمي والشخصي للإمام النسفي بإيجاز، ثم سيتم ذكر الإطار المفاهيمي وعناصر دلالة السياق، وسيظهر دورها في فهم الآيات من خلال الآيات النموذجي وكما تشتمل هذه الرسالة بعض الدراسات حول هذا الموضوع وستكون بمثابة مصدر للبحث.

الكلمات المفتاحية: التفسير، الدلالة، السياق، الإمام النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل.

NESEFÎ TEFSİRİ'NDE SİYÂK DELÂLETİ BAKARA SÛRESİ ÖRNEĞİ

ÖZET

Bu çalışmada Kur'an-ı Kerim'in anlaşılmasında çok büyük mevki ve yüksek değere sahip olan, Siyak ele allanacaktır. Siyakın kavramsal çer çivisi çizilecektir ve siyakı uluşturan unsurlar tespit edilip bunlar incelenecektir.

Tabi bunları yaparken de tüm aleml İslam'ın İslami ilimler medreselerinde muazzam bir rabıta gören İmam Ebü'l-Berekât an Nesefinin Medâriku't Tenzil ve Hakaiku't Te'vil İsimli Tefsirinde bu siyakın yeri tespit edilmeye çalışılacaktır.

Bunu yaparken siyakın önemini ortaya koyan bazı örnek ayetlerden hareket edilecektir öncelikle ayetler verilip ayetlerin farklı anlaşılmasına zemin hazırlayan bazı siyak taktıralı farklı yorumlar gösterecektir bazı ayetlerin farklı yorumlara açık olabileceği ancak siyakın bu farklı yorumlar içeresinden bir tanesini öne çıkardığı bu anlamda ayetin gerçek manasını tespitte çok büyük önemi olduğu ortaya koyulmaya çalışılacaktır.

İlk bölümde imam Nesefinin kısaca hayatından ve eserlerinden bahsedilecektir.

Bu tebliğde imam Nesefinin kısaca ilmi şahsi tenden ve tefsirinden bahsedilip daha sonra siyakın kavramsal çerçevesi ve unsurları zikredilecek ve örnek ayetler üzerinde siyakın ayetlerin anlaşılmasındaki rolü gösterilecektir.

Konuyla ilgili bazı yapılan çalışmalarda temas edilecek bunlarda bize kaynaklık edecektir.

Anahtar kelimeler: Tefsir ,Siyak , Bağlam ,İmam an Nesefi, Medâriku't Tenzil ve Hakaiku't Te'vil.

THE SIGNIFICANCE OF CONTEXT IN AL-NASAFI'S INTERPRETATION - SURAT AL-BAQARAH AS AN EXAMPLE

ABSTRACT

There are many elements for a correct understanding of the Quran. One of the most important elements among these elements is context. Context has a key role in understanding the intent of the utterance. Evaluating the before and after of the sentence whose meaning is desired to be determined together ensures that the sentence is understood correctly within the integrity of the subject. This is called in-text context. There is also an extra-textual context, which includes the time, place, conditions, geography, history, culture and addressees of the relevant word. It is not possible for an understanding effort that does not take into account these to yield results. Because there is always a context that creates the word, and without determining this, the purpose of the word that comes into being cannot be known. Many oral and written interpretation activities have been carried out from the time the Quran was revealed until today. In terms of the geography we live in, very useful commentaries were also written in the regions under the rule of the Ottoman Empire. Among these, Imam Nasafi's work named *Madariku't-Tanzil* and *Hakaiku't-Ta'vil* is of great importance in terms of prevalence and acceptance. In this study, the role of context in understanding the verses will be examined within the framework of Imam Nasafi's aforementioned commentary. First, brief information will be given about Imam Nasafi's scientific personality and works. Then, the conceptual framework, elements and importance of context will be discussed. Then, based on Nasafi's commentary, the effect and contribution of *siyak* to understanding the Quran will be revealed through some sample verses. Thus, it will be tried to show how much Nasafi includes context in the context of understanding the Quran.

Key Words: Tafsir; Context; *Siyak*; Imam Nasafi; *Madariku't Tanzil* and *Hakaiku't Ta'vil*.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده قرانا عربيا مبينا، ولم يجعل له عوجا باطنا وظاهرا، ونصب فيه للحق دليلا منيرا مرشدا، وأخرج للناس من عباده العلماء الذين يسلكون في سبيل الحق بهذا الدليل مستنيرا مسترشدا، والصلاة والسلام على النبي الأمي أعلم الناس بمراد الله في كتابه، وعلى صحابته الأخيار الأمناء على الوحي المنزل عليه من عند الله، وعلى من اتبعهم بإحسان الى يوم الجزاء.

أما بعد:

فإن القرآن الذي أنزله الله تعالى هدى للعالمين هو أشرف العلوم وأجلّها، وإن العلم والتعلم به وتعليمه من أعظم أعمال العباد من حيث أن شرف العلم يأتي من شرف المعلوم؛ ومن منحه الله العلم بكتابه وتعلمه والعمل به فقد خصه بالفضل والشرف والخير كله، كما جاء في الحديث الصحيح عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ".¹ وذلك أن العلم والتعلم بالقرآن والعمل به هو السبيل الموصل الى تحقيق الكمال البشري والرفعة والصلاح والسعادة في الدارين، لأن القرآن العظيم هو السبيل الوحيد للأقوام لإصلاح الأمة وهدايتها وبلوغ كمالها، كما قال الله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) [الإسراء: ٩]؛ ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يكرمنا بعلمه والعمل به والاهتداء بهديه!

مشكلة الدراسة

ولقد أشارت علي أولا مشرفتي السابقة، الدكتورة ضحى محمد صالح - حفظها الله - أن أبحث عن دلالة السياق في تفسير النسفي، المشهور في العالم الإسلامي، والمسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي- رحمه الله- مع تطبيقها على تفسير سورة البقرة نموذجا؛ ولقد أكد هذا الإرشاد وأوصاني باستمرار في هذا البحث بنفس العنوان مشرفي الآن الدكتور المعالي، عون الله أنس عاطش-حفظه الله - بعد مفارقة الدكتورة ضحى من الجامعة، وبعد البحث والاطلاع، والقراءة والتدقيق في الدراسات التي كتبت عن موضوع بحثي، وجدت أن هذا الموضوع في غاية الأهمية، وأنه - على الرغم من أنه معروف لدى كثير من أهل العلم، وتناوله العلماء بالدراسات عنه من خلال تفاسير أخرى، كتفسير الكشاف وابن جرير وابن عاشورا - فلم يبحث عنه من جهة دلالة السياق في تفسير النسفي، وقررت في نفسي بتوفيق الله تعالى أن أكتب بحثا علميا عن هذا الموضوع وأن أتناوله من خلال

¹ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (دمشق: دار ابن كثير: دار اليمامة، ١٤١٤ / ١٩٩٣)، "فضائل القرآن"، ٢١.

تفسير الإمام النسفي مع تطبيقاته العملية، المستمدة من سورة البقرة، حتى يكون إسهاما وسعياً في خدمة القرآن الكريم، فشرح الله صدري لذلك، واستعنت به تعالى، وهو المستعان في الأمور كلها، فأسأل سبحانه وتعالى أن يكون بحثا نافعا إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

أهداف الدراسة

والحقيقة أن الطريقة السليمة لتلقي كتاب الله تعالى القرآن الكريم ولتفهّم معاني ألفاظه والعلم والتعلم به هو التدبر الذي أخبره الله تعالى في كتابه أنه مقصد إنزال هذا الكتاب المبارك؛ فقال الله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [ص: ٢٩]، وقد حثَّ الله تعالى جميع عباده على تدبر القرآن؛ فقال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد: ٢٤]؛ وقال الله تعالى أيضا في الآية الأخرى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء: ٨٢].

فإذا كان سبيل الوصول الى فهم كتاب الله تعالى هو التدبر في آياته، بقي علينا أن نتعرف حقيقة التدبر حق معرفته ألا وهي قراءة الآية أو الآيات بطول النظر فيها وإعادة التفكير فيها مرة بعد مرة، لمعرفة مراد الله تعالى منها والعلم بها والعمل بمقتضاها.

قال شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله- في فائدة تدبر القرآن: "فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية. فإن هؤلاء أكثر غلطا من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون."²

وقال الإمام الزركشي -رحمه الله- في مقدمة كتابه البرهان في علوم القرآن: "وإنما يفهم بعض معانيه، ويطلع في أسرارهِ ومبانيهِ، من قوي نظره، واتسع مجاله وتدبره..."³.

وهناك تعريفات متعددة لتدبر القرآن وبينها تقارب في المعنى؛ فمن أهمها ما يلي:

² أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥ \ ٢٠٠٤)، ٩٤/١٥.

³ محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: لبنان: دار إحياء الكتب العربية)، ٥١١.

فعرّف التدبر الإمام الزمخشري -رحمه الله -⁴ فقال: "معنى تدبر القرآن تأمل معانيه وتبصّر ما فيه." ⁵ وقال: "تدبر الآيات هو التفكير فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها." ⁶

وعرفه بن عاشور⁷ فقال: "صيغة التدبر مشتقة من فعل دبر بوزن ضرب، إذا تبع، فتدبره بمنزلة تتبّع، ومعناه: أنه يتعقب ظواهر الألفاظ ليعلم ما يدبر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة." وقال: "والتدبر هو التفكير والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ، كثير المعاني التي أودعت فيه؛ بحيث كلما ازداد المتدبر تدبرا انكشفت له معان لم تكن بادية له بادئ النظر." ⁸

وقيل: هو التفكير والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدراك معانيه، وحكمه، والمراد منه.

وقيل: هو تفهم معاني ألفاظه، والتفكير فيما تدل عليه آياته مطابقة، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به مما لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه.

ويجمع ذلك: النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعبر والمقاصد، الذي يثمر العلوم النافعة والأعمال الزاكية.

⁴ هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم، الزمخشري، فخر خوارزم، إمام عصره بلا مدافعة، مولده بـ "زمخشّر" قرية من قرى خوارزم، سنة سبع وستين وأربعمائة، وأخذ الأدب عن أبي منصور بمصر وصنف التصانيف البديعة، منها/الكشاف في تفسير القرآن العظيم الذي لم يصنف قبله مثله وجاور بمكة زمنا فكان يسمى جار الله لذلك. وتوفي ليلة عرفة، سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بجرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكة. أنظر: أبو الفداء زين الدين قاسم بن فطلوبغا السودوني، تاج التراجم، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، (دمشق: دار القلم، ١٤١٣/١٩٩٢)، ٢٩١-٢٩٢.

⁵ محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، (بيروت: دار الكتاب العربي، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧/١٩٨٧)، ٥٤٠/١.

⁶ المصدر السابق، ٩٠/٤.

⁷ محمد الفاضل بن محمد الطاهر ابن عاشور، أديب خطيب، مشارك في علوم الدين، من طلائع النهضة الحديثة النابهيين، في تونس. مولده ووفاته بها. تخرج بالمعهد الزيتوني وأصبح أستاذا فيه فعميدا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة وشارك في ندوات علمية كثيرة وفي بعض مؤتمرات المستشرقين. وشغل خطة القضاء بتونس ثم منصب مفتي الجمهورية. وهو من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة ورابطة العالم الإسلامي بمكة. توفي سنة ١٣٩٠ هـ، - ١٩٧٠ م. أنظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، الأعلام للزركلي، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢)، ٣٢٥/٦.

⁸ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التونسي، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣)، ٢٥٢/٢٣.

وإنما ذكرت هذه الجملة الأخيرة؛ لأنه قد ورد عن جماعة من السلف تفسير التدبر بالعمل والامتثال وما إلى ذلك مما يقع في القلب، ويظهر على الجوارح، ولا ريب أن هذا يكون أعلى مراتب التدبر، وإلا فقد يحصل ببعض ذلك كما لا يخفى.⁹

وبهذا نتعلم أن كل التعريف بالتدبر يدور على إعمال الفكر والنظر بالتأمل والتفهم في أي القرآن الكريم للتوصل إلى معانيه ومقاصده.

فلعل أقرب السبل إلى تدبر القرآن هو تعميق النظر وإعمال الفكر بطول التأمل في ألفاظ آياته، وفي أساليب التعبير في ضمنها والتناسب والترابط بينها، والأحداث والأحوال التي نزلت فيه؛ وذلك مما يعين على اكتشاف المعنى المراد الحقيقي من كلام الله، ومن أعظم ما يبعث على ذلك كله علم عظيم المنزلة رفيع القدر، وهو معرفة دلالة السياق القرآني.

وهذا الموضوع واسع لا يمكن الإحاطة به على سبيل العموم في هذا البحث الموجز فأردت أن أختصره على تفسير النسفي سورة البقرة نموذجاً، وأن تكون قاعدة دلالة السياق مطبقة من خلال تفسير سورة البقرة.

فتظهر أهمية البحث في عدة أمور آتية:

١. أن مراعاة المفسرين لدلالة السياق كفيلة بحفظ أذهانهم من الوقوع على الخطأ في فهم كلام الله فهما صحيحاً بحيث يتفق مع مراده تبارك وتعالى.

٢. أن الركن القوي والقاعدة المتينة في بيان المعنى الإجمالي أو المعنى المراد لآيات القرآن فهو تعميق النظر والتفكير في دلالة سياقه.

٣. أن الحاكم العادل والضابط الفاصل في تحرير معاني الألفاظ القرآنية – لا سيما الألفاظ المشتركة – هو دليل السياق في آيات القرآن.

٤. أن دلالة السياق تعتبر دليلاً شرعياً في إدراك المعاني النازلة من عند الله تعالى التي صيغت ضمن ألفاظ الآيات القرآنية على أساس الأساليب المتعارفة في اللغة العربية؛ فدلالة السياق تعدّ من الدلائل المعتمدة في التفسير عند المفسرين.

٥. أن دلالة السياق لها تأثير جسيم في حل مشكل ألفاظ القرآن الذي زلت فيه أقدام وطاشت فيه أفهام.

⁹ خالد بن عثمان السبت، الخلاصة في تدبر القرآن الكريم، (دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٧\١٦\٢٠١٦)،

وأما الهدف من هذا البحث فيظهر في أمور آتية:

١. أن الهدف المحوري في البحث هو التركيز على إيضاح دلالة السياق ثم إتيان تطبيقاتها العملية من خلال تفسير الإمام النسفي سورة البقرة.

٢. إظهار أصل من أصول علم التفسير لا غنى عنه بالنسبة لكل مفسري القرآن قديما وحديثا، لما له من أثر جسيم في فهم كلام الله تعالى وفقا على مراده، وفي بيان المعنى المراد في الآية، ألا وهو دلالة السياق القرآني.

٣. إلقاء الضوء على أهمية دلالة السياق في تفسير القرآن وذلك وفق دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير النسفي سورة البقرة نموذجا، حيث إنه من أبرز المفسرين الذين يعتمدون عليها ويعتبرونها في مجالات متعددة في تفسيره.

٤. بيان ان من الواجب على كل من يتصدى لتفسير القرآن أن يراعي على أساليب التعبير في تركيب ألفاظه وتناسب الآيات فيه وترابطها بعضها ببعض، والأحداث والأحوال التي نزل فيها، وأن يتقيد بالسياق الذي تسير فيه الآيات سباقا ولحاقا حتى يكون تفسيره للقرآن الكريم تفسيراً صحيحاً يتفق بمراد الله تعالى الذي أنزله بلغة عربية، كتفسير الصحابة رضوان الله عليهم الذين يعرفون لغة القرآن بطبيعتهم الخلفية وبلسانهم السليقة لأنهم العرب الخالص وشاهدوا النزول وعاشوا مع الرسول بين أيديهم، واختارهم الله تعالى لقبول القرآن مباشرة من رسوله وادأه الى الناس من خلفهم.

٥. محاولة جمع الأمثلة لدلالة السياق من خلال تفسير النسفي سورة البقرة، وبيان مدى عناية الإمام بها في تفسيره آيات القرآن بإتيان تطبيقات عملية منه.

منهج الدراسة

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الوصفي، ثم طبقته على تفسير النسفي سورة البقرة نموذجا، بأن آتي من خلاله بالتطبيقات العملية، والأمثلة المناسبة لقاعدة دلالة السياق في تركيب ألفاظ الآيات القرآنية وأساليب التعبير فيها، وسردها وسيرها في نظمها التناسقي وقد حاولت في البحث على الإجابة عن التساؤل الآتي:

١. ماهي مكانة دلالة السياق عند المفسرين؟

٢. ما هي أسباب اعتماد المفسرين على دلالة السياق في توضيح معاني ألفاظ الآيات في القرآن الكريم؟

٣. ما هي مظاهر تطبيقات الامام النسفي قاعدة دلالة السياق ا في ثنايا تفسيره آيات سورة البقرة؟

الدراسات السابقة

وعندما أردت ان ابحث عن هذا الموضوع لم أجد أثناء دراسته بقدر استطاعتي من تناول هذا العنوان نفسه بالدراسة، ولكن رأيت بعض الباحثين تناولوا هذا الموضوع من خلال تفاسير أخرى، وكذلك بعض المقالات العلمية، ومنها:

١. أثر السياق القرآني في التفسير دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة، لمحمد بن عبد الله الربيعه، رسالة دكتوراه، مقدمة لكلية أصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود، عام ١٤٢٧ هـ.
 ٢. السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير لعبد الرحمن عبد الله، سرور المطيري رسالة ماجستير، بجامعة أم القرى، عام ١٤٢٩ هـ.
 ٣. دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير إعداد الدكتور عبد الحكيم بن عبد الله القاسم الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود ١٤٣١ هـ.
 ٤. السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، إعداد الدكتور محمد عبد الوهاب الراسخ مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بطنطا جامعة الأزهر الشريف، ١٤٤١ هـ.
- وهذه هي بعض أهم الدراسات السابقة ذات الصلة وأصالة الأطروحة.

الفصل التمهيدي: ترجمة الإمام النسفي وشخصيته العلمية

المبحث الأول: ترجمة الإمام النسفي وشخصيته العلمية

المطلب الأول: إسمه ونسبته وكنيته ولقبه

هو الإمام العلامة المفسر الأصولي شيخ الإسلام حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود، علامة الدنيا، أبو البركات النسفي، الفقيه الحنفي المتكلم أحد الزهاد المتأخرين.¹⁰ وينتسب إلى مدينة نَسَف -بفتح النون والسين- ببلاد السند،¹¹ من بلاد ما وراء النهر، بين جيحون¹² وسمرقند، على عشرين فرسخاً من بخارى، واسمها حالياً قرش بمعنى القصر. وتسمى في العربية نَسَف، وفي الفارسية بنخشب. ولها قرى كثيرة والغالب على أرضها الخصب، وهي مدينة لها أربعة أبواب، تقع على مدرج بخارى وبلخ،¹³ آسيا الوسطى، وهي دولة أوزباكستان اليوم.¹⁴ إنها ذكرت في قصيدة يقولها أبو تمام¹⁵ للمعتصم:¹⁶

¹⁰ محيي الدين أبو محمد عبد القادر القرشي الحنفي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر، ١٤٢٣/١٩٩٣)، ٢/٢٩٤؛ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (الهند: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٣٩٢/١٩٧٢)، ٣/١٧؛ يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن جمال الدين، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، التاريخ غير موجود)، ٧/٧٢-٧٣؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، (بيروت: مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي)، ٦/٢١؛ الزركلي، الأعلام للزركلي، ٤/٦٧.

¹¹ بكسر السين وسكون النون وآخره دال مهملة: بلاد بين بلاد الهند. أنظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، ١٤١٥ \ ١٩٩٥ م)، ٣/٢٦٧.

¹² إسم نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخاب من حدود بذخشان وينضم إليه أنهار في حدود الختل ووخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم وينضم إليه نهر يلي جرياب يسمى بأخش، وهو نهر هلبك مدينة الختل، ويلييه نهر بربان. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/١٩٦؛ شوقي أبي خلیل، أطلس التاريخ العربي والإسلام، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦ \ ١٤٢٥)، ١٩.

¹³ مدينة مشهورة بخراسان بناها الإسكندر الكبير وكانت تسمى الإسكندرية قديماً، بينها وبين مدينة ترمذ اثنا عشر فرسخاً، ويقال لها إنها قصبة نزيهة منعمة طيبة هي جنة خراسان ونظير دمشق الشام قد تخلل شوارعها الأنهار والتفت بها البساتين والأشجار مع علم كثير وصيت لأهله هي خزانة الفقه ومعدن المروعة وموضع السباحة ودار النعمة وأهل اللطافة دورها فسيحة وأسواقها حسنة وثمارها عجيبة ونعمها رخيصة ومياهها خفيفة، بها مشايخ أجلة وصدور ائمة وأضداد عدة وتجارات مفيدة وأموال كثيرة ليس بأقاليم العجم مثل جامعهم ولا بالمشرق مثل بلدهم وهي اليوم دولة أفغانستان. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١١/٤٧٩-٤٨٠؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار صادر)، ٣٣١؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (بيروت: دار صادر، ١٩٩١ \ ١٤١١)، ٣٠٢.

¹⁴ الزركلي، الأعلام، ٤/٦٧؛ عز الدين ابن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٠ \ ١٩٨٠)، ٣/٣٠٧؛ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٣٨٥ \ ١٤٢٢)، ٢٤/٤٠٣.

¹⁵ شاعر العصر من حوران من قرية جاسم بسورية، ولد في أيام الرشيد. أسلم وكان نصرانياً. مدح الخلفاء والكبراء. وذهب الي مصر وجالس الأدباء وأخذ عنهم وكان يتوقد ذكاء وشعره في الذروة. وكان فصيحاً، عذب العبارة. فسمع به المعتصم فطلبه وقدمه على الشعراء وله فيه قصائد. وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة. شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، سير أعلام النبلاء، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٨ \ ٢٠٠٦)، ١٩/١١٩.

¹⁶ الخليفة أبو إسحاق محمد بن الرشيد هارون بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، الذهبي، سير أعلام النبلاء،

تَهَاب الروم في معاقلها / والتُّرْك تخشاك من وراء نسف

تخرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن، فمنهم مثالا أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج بن خدّاش النسفي، وكان من جلة العلماء وأصحاب الحديث الثقات، وله كتب كثيرة في جمع التفسير والسنة.¹⁷

واشتهر الإمام النسفي بأبي البركات كنية، وله ألقاب عدة يلقب بها في كتب التاريخ والأنساب مثل حافظ الدين، شيخ الإسلام، علامة الدنيا، وما إلى ذلك من الألقاب، ولكنه مشهور بنسبته الشائعة عليه هي النَّسْفِيُّ، فهو: أبو البركات حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.

المطلب الثاني: مولده ونشأته وأسرته

لم أتمكن من العثور على نص صحيح عن مكان ولادته تحديدا غير أن ثبت في بعض المراجع المعتمدة أنه من أهل إيدج وتوفي في هذه البلدة.¹⁸

وأما سنة ولادته فقد اكتفت كتب التراجم بذكر اسمه وكنيته ولقبه ومؤلفاته دون ذكر سنة ولادته. والمصدر الوحيد الذي ذكر تاريخ ولادته هو الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد نصار، وهي سنة ١٢٣٢م،¹⁹ وعلى هذا يوافق تاريخ ولادته إلى سنة ٦٣٠ هـ، فقد عاش الإمام النَّسْفِيُّ - رحمه الله - في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن بتقويم الهجري.

ورسوخه في العلم وتبحره في كل فن من العلوم يدل على نشأته الصالحة في طلب العلم، ومع ذلك أن نشأته وأسرته مثل مولوده لا يُعرف عنها إلا ما جاء في بعض كتبه ذكر آبائه الكرام بألقاب رفيعة تشير إلى علو مقامهم العلمي، ومنزلتهم الاجتماعية العالية.

فقد جاء في مقدمة كتابه/المصنفى شرح المنظومة النَّسْفِيَّة ما يلي: "قال عبد الله بن الصدر السعيد، المغفور له الشهيد، حميد الملة والدين أحمد ابن الصدر السعيد حافظ الدين محمود النسفي، لا زالت آثاره في الفضل مشهورة، وحسبان أيديه موفورة، وخصّ الله تعالى أسلافه الغرّ الكرام بالوصول التام؛ وفي مقدمة كتابه/الوافي ما يلي: "الوافي من تأليف مولانا الشيخ الإمام أبي البركات عبد الله بن الصدر الإمام المرحوم حميد الملة والدين أحمد ابن الإمام المغفور له حافظ الدين محمود النسفي"؛ وفي مقدمة كتابه

¹⁷ أبو سعد، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، الأنساب للسمعاني، تحقيق: جماعة من العلماء، (الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد الدكن، ١٣٨٢/١٩٦٢)، ٩٣/١٣؛ محمد بن منصور التميمي السمعاني، اللباب في تهذيب الأنساب، ٣٠٨/٣.

¹⁸ الزركلي، الأعلام، ٦٧/٤.

¹⁹ مجموعة العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، الإشراف: حسين محمد نصار، (بيروت: المكتبة العصرية صيدا، ١٤٣١/٢٠١٠)، ٣٣٨/١١.

كشف الأسرار شرح المصنف على المنار ما يلي: "قال مولانا الشيخ الإمام أبو البركات عبد الله بن الإمام الأجل الكبير السعيد، حميد الملة والدين أحمد محمود النسفي. ²⁰"

ويتضح مما سبق من الأوصاف الحميدة أن الإمام النَّسْفِي رحمه الله إنحدر من أسرة العلم والعمل والإمامة، والدين والكرم والسيادة، والفضل، والصدارة، والريادة في العلم والدين والدنيا.

وربما يرجع السبب الرئيسي في قلة المراجع التي تتحدث عن الإمام النسفي إلى تسلط المغول وغزو التتار، وتوالي الحروب والقتال والاضطرابات، والفتن التي عاشها العالم الإسلامي في آنذاك، وذلك مما أدى إلى تحريق الكتب والمكتبات، وتدمير المساجد ودور العلم، حتى لم يبق منها إلا الحكايات.

المطلب الثالث: رحلاته

عاش الإمام النسفي في بخارى، وتعلم في مدارسها، وكان له دور في نشر العلم بها، ومع ذلك كانت له رحلات في طلب العلم، كما هي معلومة من قوله: "ورأيت المصلين في بخارى وغيرها من بلاد الإسلام. ²¹" ولكن لم تذكر كتب التراجم شيئاً عن هذه الرحلات إلا رحلة واحدة، وهي رحلته إلى بغداد في أواخر حياته سنة ٧١٠ هـ ²² ثم كانت وفاته في بلدته إيذج كما سبق.

المطلب الرابع: شيوخه

أخذ الإمام النسفي العلم عن أئمة العلماء في عصره وقد ذكر في كتب التراجم أنه تفقه بجماعة من أعيان العلماء حتى برع في الفقه، والأصول، والعربية، واللغة. ²³

فشيوخه الذين تفقه عليهم ثلاثة:

أولاً: محمد بن عبد الستار الكردي المعروف بشمس الأئمة؛ ومولده سنة تسع وخمسين وخمسمائة في ثاني عشر ذي القعدة. وتوفي في بخارى يوم الجمعة، تاسع المحرم، سنة اثنتين وأربعين وستمائة. ²⁴

²⁰ أبو البركات النسفي، كشف الأسرار شرح المصنف على المنار، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ١/٤١-٣.

²¹ سحر محمد فهدي كردية، منهج الإمام النسفي في القراءات وأثرها في تفسيره، (غزة: رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عبد الرحمن يوسف الجمل في قسم التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية)، ١٨.

²² أبو الفداء زين الدين قاسم، تاج التراجم في طبقات الحنفية، ١٧٥.

²³ يوسف بن تغري، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢١٧.

²⁴ أبو الفداء زين الدين قاسم، تاج التراجم في طبقات الحنفية، ٢٦٧-٢٦٨.

ثانياً: الإمام، العلامة علي حميد الدين الضرير البخاري. توفي يوم الأحد ثامن ذي القعدة سنة ست وستين وستمائة، وصلى عليه صلاة جنازته تلميذه حافظ الدين النسفي، ووضعه في قبره. ويقال: حضر الصلاة عليه قريب من خمسين ألف رجل.²⁵

ثالثاً: العلامة بدر الدين خواهر زاده. وهو محمد بن محمود بن عبد الكريم الكردي، المعروف بخواهر زاده، ابن أخت الشيخ محمد بن عبد الستار شمس الأئمة الكردي الذي تقدم ذكره، ورباه خاله أحسن تربية، ونشأ عنده وبلغ رتبة الكمال وأخذ عنه العلم، وتوفي في آخر ذي القعدة، سنة إحدى وخمسين وستمائة، ودفن عند خاله.²⁶

وقد جاء في بعض كتب التراجم المعتبرة أن الإمام النسفي روى كتاب *الزيادات* عن أحمد بن محمد العتابي.²⁷ فيعدّ أحمد بن محمد العتابي²⁸ أيضاً من شيوخ الإمام النسفي من جهة رواية.

المطلب الخامس: تلاميذه

تتبعنا واطلعت في كتب التراجم والتواريخ وغيرها من الكتب فلم أجد بياناً قاطعاً لعدد تلاميذه إلا ما ذكر في ترجمته أنه تصدر للإفتاء والتدريس سنين عديدة، وانتفع به غالب علماء عصره وانتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه علماً وعملاً.²⁹

وبالرغم على أن هذه السطور من ترجمته قد تدل على كثرة عدد الذين تتلمذوا على يدي الإمام النسفي وانتفعوا به، ولكن لم ينقل في التراجم إلا واحد منهم وهو الصغناقي، فجاء في ترجمة الإمام النسفي أنه سمع منه الصغناقي.³⁰ وهو الإمام العلامة الفقيه الحسين بن علي بن الحجاج بن علي حسام الدين

²⁵ المصدر السابق، ٢١٥.

²⁶ أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، *الفوائد البهية في تراجم الحنفية*، تحقيق: محمد بدر الدين الحلبي، (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٤)، ٢٠٠؛ محيي الدين أبو محمد عبد القادر القرشي، *الجواهر المضية في طبقات الحنفية*، ٣٦٢/٣-٣٦٣.

²⁷ أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، *الفوائد البهية في تراجم الحنفية*، ١٠٢.

²⁸ هو أحمد بن محمد بن عمر أبو نصر وقيل أبو القاسم زين الدين العتابي نسبه إلى العتابية محلة ببخارى له كتاب *الزيادات* وكتاب *جوامع الفقه* أربع مجلدات وشرح الجامع الكبير وشرح الجامع الصغير مات يوم الأحد من سنة ست وثمانين وخمسمائة ببخارى. قلت: وله كتاب تفسير القرآن وكانت وفاته وقت الظهر ودفن بمقبرة الفقهاء السبعة. قال الذهبي: "صنف الجامع الكبير والزيادات وتفسير القرآن ولازمه شمس الأئمة الكردي وأخذ عنه." أنظر: أبو الفداء زين الدين قاسم، *تاج التراجم في طبقات الحنفية*، ١٠٣.

²⁹ يوسف بن تغري بردي، *المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي*، ٧٢١٧.

³⁰ محيي الدين أبو محمد عبد القادر القرشي، *الجواهر المضية في طبقات الحنفية*، ٢٩٥/٢.

الصغناقي البخاري. وكان عالما فقيها نحويا جدليا ودخل بغداد ودرس بها بمشهد الإمام أبي حنيفة ثم توجه إلى دمشق حاجا سنة عشرة وسبعمائة وتوفي في رجب سنة إحدى أو أربع عشرة وسبعمائة بحلب.³¹

المطلب السادس: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

يعد الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي رحمه الله أحد أبرز علماء المسلمين في القرن السابع والثامن الهجري وهو عالم موسوعي ذو سعة وعلم وذكاء وقدرة على الاستنباط.

وقد كان النسفي إماما كاملا عالما عديم النظير في زمانه، رأسا في الفقه والأصول، بارعا في الحديث ومعانيه، صاحب علم البيان والمعاني، جامعا بين الأصول والفروع، صدرا للإفتاء والتدريس سنين عديدة، نافعا لعلماء عصره، زاهدا في الدنيا، مكبا على التصنيف والتأليف، متواضعا للفقراء، مترفعا على الملوك لا يتردد لأرباب الدولة، ولا يجتمع بهم إلا إذا أتوا إلى منزله، أثنى على علمه ودينه غير واحد من العلماء، ولم يزل على ما هو عليه من العلم والعمل حتى أدركه أجله، وله التصانيف المفيدة في الفقه والأصول والعربية وغير ذلك من العلوم الإسلامية.³²

وهذه التصانيف الجليلة المشهورة التي سيأتي تفصيلها في بيان مصنفاته العلمية تشهد لمدى منزلته العلمية وسعة علمه وحسن اطلاعه ومشاركته في علوم مختلفة.

وقد نال الإمام النسفي مكانة رفيعة بين العلماء من عصره إلى عصرنا هذا، ونال ثناءهم على سعة علمه وفضله وشرفه. ومن أشهر من أثنى عليه:

تلميذه الإمام حسام الدين الصغناقي، (٧١٤ هـ)³³ فقال عنه: هو "الإمام الزاهد، مُدركُ اللوحة، مُصيب الرزمة، رئيس أهل الطريقة، تاج أهل الحقيقة، مصنف آخر الزمان، نفاع طلبة العلم الذين هجروا الأوطان، مولانا حافظ الدين النسفي".³⁴

³¹ وجاء في بعض المراجع "الصغناقي"، نسبته إلى سغناق بكسر السين المهملة وسكون الغين المعجمة ثم نون بعدها ألف بعدها قاف وهي بلدة في تركستان. أنظر: أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ٦٢؛ محيي الدين أبو محمد عبد القادر القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ١١٤-١١٦؛ يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١٦٣/٥-١٦٤.

³² يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢/٧-٧٣.

³³ تقدم ذكره في بيان تلاميذ الإمام النسفي.

³⁴ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، كنز الدقائق، تحقيق: سائد بكداش، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، المدينة المنورة: دار السراج، ١٤٣٢، ٢٠١١)، ٢١.

والإمام الفقيه ابن مالك عبد اللطيف بن عبد العزيز (٨٠١ هـ)³⁵ قال عنه في مقدمة شرحه على المنار: "الإمام الخبير سيد الأحرار والهمام النحرير سند الأخيار، بديع الفضل في الأعصار، ما رأت مثله الأبصار، مولانا حافظ الدين".³⁶

والإمام ابن الهمام (٨٦١ هـ)³⁷ وصفه في مقدمة فتح القدير بقوله: "الشيخ الكبير، أستاذ العلماء.

38"

والعلامة القاضي الكفوي محمود بن سليمان (٩٩٠ هـ)³⁹ أثنى عليه بقوله: "علم الهدى، وعلامة الورى، مفتي الدهر، وقدوة ما وراء النهر، محيي السنة والفرص، وأستاذ أهل الأرض، حافظ الملة والدين، ناصر الإسلام والمسلمين، ناصح الملوك والسلطين. وكان ماهراً في فنون الأدب ومبانيه، وله مقاماتٌ سَنِيَّةٌ في العلوم العقلية، ومقامات بهية في الفنون النقلية، وهو كثير العلم مرتفع المكان، فريد ما له في الفضل ثان، له في العلوم آثار ليست لغيره من أهل عصره، أخذ العلوم عن أفواه الرجال، حتى صار مضرب الأمثال".⁴⁰

وابن الحجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)⁴¹ قال عنه: "علامة الدنيا".⁴²

³⁵ عبد اللطيف بن عبد العزيز بن أمين الدين بن فرشتا الكرمانى، المعروف بابن ملك فقيه حنفى، من المبرزين، وله شرح منار الأنوار. أنظر: الزركلى، الأعلام، ٥٩١٤.

³⁶ أبو البركات النسفى، كنز الدقائق، ٢١.

³⁷ محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد كمال الدين الشهير بابن الهمام، السكندري السيواسى، كان والده قاضياً بسيواس من بلاد الروم، ثم قدم القاهرة وولى خلافة الحكم بها عن القاضي الحنفى، ثم ولي القضاء بالإسكندرية وتزوج بها بنت القاضي المالكي فولد له الكمال محمد سنة ثمان وثمانين وسبعمائة فاشتغل بعد ما ترعرع على أبيه وعلى علماء بلده ثم قرأ الهداية على سراج الدين الشهير بقاري الهداية وكان إماماً نظاراً فارساً في البحث، فروعا أصولياً محدثاً مفسراً حافظاً نحويًا كلامياً منطقياً جدلياً وله تصانيف مقبولة معتبرة منها شرح الهداية المسمى بفتح القدير، والتحرير في الأصول وغير ذلك، مات سنة إحدى وستين وثمانمائة، أنظر: أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ١٨٠، ١٨١١.

³⁸ أنظر: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمنى، فتح القدير، (دمشق: بيروت: دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، ١٤١٤)، ١٠١١.

³⁹ أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ٣؛ مصطفى عبد الله القسطنطيني المعروف بكاتب جلبى وبجاجة خليفة، كشف الظنون، تحقيق: إكمال الدين إحسان أوغلي، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى - مركز دراسات المخطوطات الإسلامية، ٢٠٢١/١٤٤٣)، ٢٣١٦.

⁴⁰ أبو البركات النسفى، كنز الدقائق، ٢٢.

⁴¹ أحمد بن علي بن محمد الكنانى العسقلانى، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر: من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره. أنظر: الزركلى، الأعلام، ٧٨١١.

⁴² شهاب الدين العسقلانى، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٣، ١٧١.

والعلامة ابن النجيم (٩٧٠ هـ)⁴³ وصفه في مقدمة *النهر الفائق* بقوله: "أفضل المتأخرين، وأكمل المتبحرين، حافظ الملة والدين، وعمدة المتحقيقين".⁴⁴

ومن الثناءات المجمع عليها في وصفه، المثبتة في مقدمة كل النسخ الخطية والمطبوعة من كتابه *كنز الدقائق* ما يلي:

"قال مولانا الحبر النحرير، صاحب البيان والبنان في التقرير والتحرير، كاشف المشكلات والمعضلات، مبين الكنايات والإشارات، منبع العلا، علّم الهدى، علامة الورى، مالك أزمة الفتيا، مظهر كلمة الله العليا، كشاف الحقائق، مبين الدقائق، سلطان علماء الشرق والصين، حافظ الحق والملة والدين، شمس الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي".⁴⁵

وقد جاء من الثناءات في مقدمة تفسيره *مدارك التنزيل وحقائق التأويل* ما يلي:

"قال مولانا الإمام المعظم، والحبر الإمام المقدم، أستاذ أهل الأرض، محيي السنة والفرص، كشاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح أسرار حقائق التأويل، ترجمان كلام الرحمن، صاحب علم المعاني والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه في المنقول والمسموع، حافظ الملة والدين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قوم المحققين، ذو السعادات والكرامات أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي".⁴⁶

وهكذا، فقد كانت تلك الثناءات العالية من محبيه وعارفيه شهادات على رفعة مكانته العلمية بين العلماء في عصره، وما زالت مؤلفاته إلى اليوم مصدرًا مهمًا للعلم والدراسة، والتحقيق في مختلف العلوم الإسلامية.

⁴³ زين الدين بن إبراهيم بن محمد، الشهير بابن نجيم، فقيه حنفي، من علماء مصر، له تصانيف، منها *الأشباه والنظائر* في أصول الفقه و*البحر الرائق* في شرح *كنز الدقائق* في الفقه. أنظر: الزركلي، الأعلام، ٦٤٣.

⁴⁴ سراج الدين عمر بن إبراهيم بن نجيم الحنفي، *النهر الفائق* شرح *كنز الدقائق*، تحقق: أحمد عزو عناية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ / ٢٠٠٢)، ١٧١.

⁴⁵ أبو البركات النسفي، *كنز الدقائق*، ١٣٧.

⁴⁶ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*، تحقيق: يوسف علي بديوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٩ / ١٩٩٨)، ٢٤١.

المطلب السابع: تدريسه وتأليفه

تصدر الإمام للإفتاء والتدريس سنين عديدة، وانتفع به غالب علماء عصره، وانتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه علما وعملا، وأكب على الاشتغال والإشغال والتصنيف إلى آخر حياته فكانت له مصنفات جليلة، وكل تصانيفه نافعة معتبرة عند الفقهاء، مطروحة لأنظار العلماء.⁴⁷

وأذكر فيما يلي ما وقفت عليه من ذلك، مع التعريف بكل منها، مقدماً بالذكر منها ما يتعلق بكتاب الله تعالى، وهو كتابه في علم التفسير، ثم ما كتبه في التوحيد والعقائد، ثم ما كتبه في السنة النبوية، ثم ما كتبه في الفقه وأصوله.

المطلب الثامن: كتابه في علم التفسير

وهو كتابه في التفسير الذي نحن بصدد دراسته، المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل الذي اشتهر باسم تفسير النسفي. وهو كتاب وسط في التفسير والتأويلات، جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، وقد جعله مؤلفه الإمام النسفي حالياً بأقوال أهل السنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل.⁴⁸

وقد ألف الإمام النسفي كتابه هذا بأن اختصره من تفسير الكشاف للزمخشري جامعاً لمحاسنه، متحاشياً لمساوئه، ومن تفسير أنوار التنزيل للبيضاوي أيضاً حتى إنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريباً منه ويضمنها تفسيره؛ غير أنه ترك ما في الكشاف من الاعتزاليات، والأحاديث الموضوعة في فضائل السور، وجرى على ما عليه أهل السنة والجماعة.⁴⁹

المطلب التاسع: مصنفاته في علم التوحيد والعقائد

عمدة العقائد: ويُسمَّى العُمْدَةُ في أصول الدين، كما يُسمَّى أيضاً عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو مختصر يحتوي على أهم قواعد العقائد الإيمانية عند أهل السنة والجماعة، و يكتفي بتصنيف العقائد الإيمانية في قلوب الأنام، وللعلماء عناية خاصة به، ولهم عليه شروح عديدة، وقد شرحه المصنّف نفسه شرحاً واسعاً مفيداً وسمّاه الإِعتِمَاد في الاعتقاد.⁵⁰

⁴⁷ يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢١٧؛ أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ١٠٢.

⁴⁸ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٢٤/١.

⁴⁹ محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٥)، ٢١٦/١-٢١٧.

⁵⁰ يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢١٧؛ مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون،

الاعتماد في الاعتقاد: وهو شرح للكتاب السابق الذكر الذي ألفه المصنّف نفسه في العقيدة وهو مصنّف يقع في حوالي خمس وعشرين ومائتين صفحة، قد انتهى الإمام النّسفي من تأليفه سنة ٦٨٨ هـ، كما ذكر ذلك في نهاية تصنيفه. وقصد منه الإمام النّسفي شرح المعضلات والمشكلات التي جاءت في العمدة وتبسيطها للقارئ كما جاء في أولها: "لما رأيت الهمم مائلة إلى العمدة التي صنفتها في شأن أهل السنة والجماعة وهي وإن كانت مشحونة بالروايات غير خالية عن الدراسات فهي مفتقرة إلى شرح موضح للمشكلات، مبين للمعضلات، أردت أن أجمع كتاباً فيه شرح مساهلها وبسط دلائلها بتوفيق خالق العباد مسمى بالاعتماد في الاعتقاد والله كاف من توكل عليه، معين من فوض أموره إليه، وهو حسبي ونعم الوكيل. 51

المنار: هذا الكتاب غير المنار الذي سيأتي ذكره في مصنفاته في أصول الفقه. وهذا هو المنار في أصول الدين. 52

اللآلئ الفاخرة في علوم الآخرة: ذكره له صاحب هدية العارفين. 53

المطلب العاشر: كتابه في السنة النبوية

وله كتاب في السنة النبوية وهو فضائل الأعمال. 54

المطلب إحدى عشر: مصنفاته في أصول الفقه

منار الأنوار: وهو متن، جامع مختصر نافع، وهو بين كتبه المبسطة ومختصراته المضبوطة أكثرها تداولاً وأقربها تناولاً، وهو مع صغر حجمه ووجازة نظمه بحر محيط بدرر الحقائق وكنز أودع فيه نقود الدقائق. 55

وأنبه هنا أن بعض التراجم سمّاه باسم المنار. 56

51 سحر محمد فهدي كردية، منهج الإمام النسفي في القراءات وأثرها في تفسيره، ٣٠.

52 يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢١٧.

53 إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٥)، ٤٦٤١.

54 المصدر السابق.

55 مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون، ١٣١١٧.

56 الزركلي، الأعلام، ٦٧٤.

كشف الأسرار: وهو شرح كبير، للمتن المختصر منار الأنوار السابق الذكر الذي ألفه المصنف نفسه في أصول الفقه.⁵⁷

العطف على الكشف: وهو شرح صغير على منار الأنوار.⁵⁸

المطلب الاثنا عشر: مصنفاته في الفقه وفروعه

الوافي في الفروع: هو كتاب مقبول معتبر، فرغ الإمام النسفي من تأليفه سنة ٦٩٦هـ، كذا ذكره في آخره. وقال الإمام في هذا الكتاب: "كان يخطر ببالي إبان فراغي أن أولف كتابا جامعا لمسائل الجامعين والزيادات، حاويا لما في المختصر⁵⁹ ونظم الخلافات⁶⁰ مشتملا على بعض مسائل الفتاوى والواقعات، وأتمته في أسرع وقت، وسميته بالوافي في فروع فقه الحنفي، ولو وفقت لشرحه لأرسمه بالكافي.⁶¹

الكافي في شرح الوافي: ووفق الإمام لشرح كتابه الوافي وسماه بالكافي وذكر أنه لما نوى أن يشرح الهداية سمع تاج الشريعة⁶² وهو من أكابر عصره، يقول عنه: "لا يليق بشأنه" فرجع عما نواه وشرع في أن يصنف كتابا مثل الهداية، فألف الوافي على أسلوب الهداية ثم شرحه وسماه بالكافي. فكأنه شرح الهداية.⁶³

كنز الدقائق:

وهو مختصر في فروع فقه الحنفي. لخص الإمام فيه كتابه الوافي بذكر ما عم وقوعه، حاويا لمسائل الفتاوى والواقعات، واعتنى عليه الفقهاء بشرحه فمنهم على سبيل المثال: العلامة زين العابدين ابن نجيم المصري (ت ٩٧٠ هـ)، الذي تقدم ترجمته. واسم شرحه البحر الرائق في شرح كنز الدقائق.⁶⁴

⁵⁷ يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢١٧.

⁵⁸ المولى تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي المصري الحنفي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، (السعودية: دار الرفاعي، ١٤٠٣-١٤١٠)، ١٥٥/٤.

⁵⁹ وهو جخ. أنظر: أبو البركات النسفي، كنز الدقائق، ٣٢.

⁶⁰ وهي منظومة أبي حفص النسفي كما جاء في المصدر السابق.

⁶¹ مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون، ٥١٩/٧.

⁶² عمر بن صدر الشريعة الأول احمد ابن جمال الدين عبيد الله المحبوبي، الملقب بتاج الشريعة البخاري الحنفي، المتوفى سنة 673 ثلاث وسبعين وستمئة. له مآثر الإقبال في مفاخر الشال في التاريخ فارسي من البعثة إلى خلافة علي كرم الله وجهه. نهاية الكفاية في دراية الهداية للمرغيناني في الفروع. أنظر: إسماعيل باشا الباباني، هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، ٧٨٧/١.

⁶³ مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون، ٥٢٠/٧.

⁶⁴ المصدر السابق، ١١٠-١٠٨/٦.

وقال الإمام النسفي في مقدمته: "لما رأيت الهمم مائلة إلى المختصرات، والطباع راغبة عن المطولات أردت أن ألخص الوافي بذكر ما عم وقوعه، وكثُر وجوده، لتكثر فائدته وتتوفر عائدته، فشرعت فيه بعد التماس طائفة من أعيان الأفاضل وأفاضل الأعيان الذين هم بمنزلة الإنسان للعين والعين للإنسان مع ما بي من العوائق، وسميته بكنز الدقائق." 65

المنافع في شرح النافع: وهو شرح النافع للشيخ الإمام ناصر الدين أبي القاسم محمد بن يوسف الحسيني المدني السمرقندي الحنفي، المتوفى سنة (٦٥٦هـ). وهو مختصر من المختصرات في فروع الفقه، يتبركون به، أوله: الحمد لله رب العالمين حمداً أمده الأبد ... وقال الإمام ناصر الدين: "سألتهموني أن أصوغ لكم في الفقه كتاباً نافعاً، فاستخرت الله في كتاب نظري الدراية صحيح الرواية، وسميته الفقه النافع". وشرحه الشيخ الإمام النسفي وسماه المستقصى. وقيل: هو المصنف أوله: الحمد لله الذي أيد أوليائه ... وقال: قد رفع حجاب شيخنا العلامة حميد الدين فأشار إلى أن أرتب ما علقته من فوائده فأجبتة ضاماً إلى ذلك ما يليق بذكره من الكتب المبسطة تنميماً للفائدة. 66

ولكن نقل في بعض كتب التراجم أن الإمام شرح هذا المختصر وسماه المنافع في شرح النافع. 67

المصنف شرح المنظومة النسفية: وهو شرح المنظومة النسفية في الخلاف لأبي حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي (٥٣٧ هـ). وأتمها الناظم أبو حفص عمر النسفي يوم السبت من صفر سنة (٥٠٤ هـ). وعدد أبياتها ألفان وست مئة وستون، ولها شروح كثيرة. فمنها هذا الشرح للإمام النسفي. سماه المصنف كما ذكر في آخر شرحه المسمى بالمصنف وقال: "لما فرغت من جمع شرح النافع وإملائه، وهو المستقصى من المستوفى، سألتني بعض إخواني أن أجمع للمنظومة شرحاً مشتملاً على كنز الدقائق، فشرحته وسميته بالمصنف." 68

وله شرحان على المنتخب في أصول المذهب للأخسيكي: شرح المنتخب المطول وشرح المنتخب المختصر. والمنتخب في أصول المذهب للإمام حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأخسيكي الحنفي، المتوفى، سنة (٦٤٤ هـ). وهو محذوف الفضول ومبين الفصول، متداخل النقوض والنظائر، منسرد اللآلئ

65 أبو البركات النسفي، كنز الدقائق، ١٣٧-١٣٨.

66 مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون، ٣٥٦/٧-٣٥٧.

67 يوسف بن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٧٢١/٧؛ محيي الدين، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ٢٧١/١.

68 مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢٣٥/٧-٢٣٦.

والجواهر، فتهالك الناس في تعلمه وتعليمه مكبين في تحديثه وتنقيره. وقد اعتنى بشرحه كثير من العلماء ومنهم الإمام النسفي فشرحه وهو شرح مختصر نافع. وله شرح مطول، أوله: الحمد لله رب العالمين.⁶⁹ هذا، وله مؤلفات أخرى غير ما ذكرنا ومن أراد المزيد من المعلومات، فليراجع إلى كتب التراجم والأعلام.

المطلب الثالث عشر: مذهبه في العقيدة

من تتبّع تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل يرى أن مذهبه في العقيدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، كما صرح الإمام نفسه في مقدمة تفسيره بكونه حالياً بأقوال أهل السنة والجماعة وخالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة⁷⁰. فإذا نظرنا إلى تفسيره نجد أنه دافع مدافعة علانية عن عقيدة أهل السنة والجماعة في كثير من المناسبات، وردّ رَدًّا قوياً على الفرق المخالفة لها من المعتزلة، والكرامية، والباطنية، والمرجئة، والجهمية، والروافض. وسماهم باسمهم صراحة، وقال: "هذه الآية حجة على الجهمية، وهذه الآية حجة لنا على المعتزلة، والآية تنفي قول الكرامية" وهلمّ جرا مثل هذه العبارات.⁷¹ وذكر أن عقيدته ماتردية لكونه في الأقوال مؤيداً ومؤكداً لآراء أبي منصور الماتريدي.⁷² وفي كثير من المسائل ينحو نحوه مستسقياً من كتبه، كما هو واضح في تفسيره فيعني هذا أنه ماتريدي العقيدة.

المطلب الرابع عشر: مذهبه في الفقه

صفحات كتب التراجم والتواريخ تدل على أن الأخذ بالمذهب الحنفي كان غالباً على العلماء في بلاد ما وراء النهر وما حولها

فلا شك في كون الإمام حنفي المذهب في الفقه، لثلاثة أسباب:

الأول: أنه ذكر في طبقات الحنفية مع الأئمة الحنفية، وقد تقدم ذلك في صدر ترجمته.

⁶⁹ المصدر السابق، ١٩٣/٧-١٩٥.

⁷⁰ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٢٤/١.

⁷¹ النسفي، المدارك، ٤٦-٤٨-٥٣-٦٦-٦٨-٧١-١٢٨-١٥٦-٢٠٧-٢٠٨-٢٠٩-٢٧٨.

⁷² محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، نسبته إلى ما تريد "محلة بسمرقند"، ومن كتبه "التوحيد" و "أوهام المعتزلة" و "الرد على القرامطة" و "مآخذ الشرائع" في أصول الفقه، وكتاب الجدل و "تأويلات القرآن" و "تأويلات أهل السنة" و "شرح الفقه الأكبر" المنسوب للإمام أبي حنيفة، ومات بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. أنظر: الزركلي، الأعلام، ١٩١٧؛ مصطفى حاجي خليفة، كشف الظنون، ١٦٩/٢؛ محيي الدين، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ٣/٣٦٠١؛ أبو الفداء، تاج التراجم، ٢٥٠.

الثاني: أن مصنفاته في الفقه كما تقدم صنف على مذهب الحنفي، فمنها مثلاً: *كنز الدقائق* في الفقه الحنفي، وقال عنه ابن نجيم المصري (٩٧٠ هـ) في مقدمة كتابه *البحر الرائق شرح كنز الدقائق*: "إن كنز الدقائق للإمام حافظ الدين النسفي أحسن مختصر صنف في فقه الأئمة الحنفية".⁷³

الثالث: أنه مال في تفسيره كل الميل إلى مذهب الأحناف ولم يخرج عن مذهبه حتى في جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة، فقد قال عند تفسيره قول الله: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) [الشعراء: ١٩٦]: "وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة".⁷⁴ وقد كرر الإمام ذلك في سورة الأعلى عند تفسيره قول الله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى) [الأعلى: ١٨].⁷⁵

المطلب الخامس عشر: وفاته

ولم أتمكن من العثور على كيفية صلاة جنازته ومن صلى عليه، وما سبب وفاته وماذا حدث في وقتها، فلم تنقل كتب التراجم والتواريخ على ماوقفت عليه عن هذه الأمور شيئاً غير ذكرت سنة وفاته وشهرها ويومها مع اختلاف قليل. فوقع الاختلاف في تحديد سنة وفاته. وذهب بعض التراجم إلى أنه توفي سنة إحدى وسبعمائة بتقويم الهجري ودفن ببلده إيج. وذكر أن الإمام النسفي توفي سنة عشر وسبع مائة للهجري، وهو خطأ، صوابه: سنة إحدى وسبع مائة.⁷⁶ وذهب بعض التراجم إلى أن كانت وفاته في سنة عشر وسبعمائة بتقويم الهجري على أنه كان ببغداد سنة عشر وسبعمائة.⁷⁷ ولكن الجميع يتفق على أنه توفي في ليلة الجمعة من شهر ربيع الأول، فالاختلاف في تعيين السنة فقط.

أفاض الله عليه أنوار رحمته وجعل علمه مباركا فيه، كما يكنى له بابي البركات، وتغمده بمغفرته وأسكنه في جناته.

⁷³ زين الدين بن إبراهيم بن محمد، *البحر الرائق شرح كنز الدقائق*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤/١٤١٨)،

٩١١.

⁷⁴ أبو البركات النسفي، *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*، ٥٨٦/٢.

⁷⁵ المصدر السابق، ٦٣٢/٣.

⁷⁶ شهاب الدين العسقلاني، *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*، ١٧/٣؛ مصطفى حاجي خليفة، *كشف الظنون*، ٥٠٠/١ - ٤٠٩/١٥؛ عمر رضا، *معجم المؤلفين*، ٤/ ١٥٥؛ أحمد بن محمد الأدنه وي، *طبقات المفسرين*، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، (السعودية: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٧/١٤١٧)، ٢٦٣.

⁷⁷ أبو الفداء، *تاج التراجم*، ١٧٥؛ الزركلي، *الأعلام*، ٦٧/٤.

المبحث الثاني: التعريف بتفسير الإمام النسفي

المطلب الأول: توثيق عنوان التفسير وصحة نسبته إلى الإمام

يمكننا أن نقطع على وجه اليقين أن يكون هذا العنوان مدارك التنزيل وحقائق التأويل موثوقا به ونسبته إلى الإمام صحيحة لا شك فيها من وجوه آتية:

1. تصريح الإمام نفسه أنه سماه بهذا العنوان في مقدمته حيث يقول: "وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل. 78"

2. ذكره بهذا الاسم في أكثر نسخه المخطوطة التي تداولت في العالم الإسلامي، والمصادر التي ترجمت للنسفي كما تقدم في بيان ترجمته.

3. تناوله وشهرته بهذا الاسم بين طلاب العلم دراسة، وتحقيقا، وتعليقا من عصر تأويله إلى عصرنا هذا، وبعد هذه الشهرة والتناول العام لا حاجة إلى دليل آخر لتثبيت عنوان التفسير وصحة نسبته إلى الإمام.

وبهذه الوجوه لا يكون مجال للشك في توثيق عنوان التفسير بمدارك التنزيل وحقائق التأويل وفي صحة نسبته إلى الإمام النسفي رحمه الله.

المطلب الثاني: سبب تأليف التفسير

لكل مؤلفات سبب يدفع مؤلفه للإقدام على سبيل تأليفه وكذلك نبحت الآن عن سبب تأليف تفسير النسفي. فقد تحدث الإمام النسفي - رحمه الله - عن السبب الذي دعاه إلى تأليفه هذا التفسير وقال: "سألني من تتعين إجابته كتابا وسطا في التأويلات، جامعا لوجوه الاعراب والقراءات، متضمنا لدقائق علمي البديع والاشارات، حاليا أقاويل أهل السنة والجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر وأخذا لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة وأتممته في مدة يسيرة وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل وهو الميسر لكل عسير وهو على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

79"

78 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٢٤١.

79 المصدر السابق.

فلا يخفى لمن قرأ تلك الفقرة من كلام الإمام النسفي في بيان سبب تأليفه هذا التفسير، أن هناك - قبل هذا التفسير - بعض الكتب في تفسير القرآن بالتأويل، ولكنه أطنب فيه إطناباً مملاً، وجمع لوجوه الإعراب والقراءات بالإيجاز المخل، وليس متضمناً لدقائق علمي البديع والإشارات، ولم يخل عن أباطيل أهل البدع والضلالة وإن كانت فيه أقاويل أهل السنة والجماعة، ومع ذلك قد أتى إلى الإمام النسفي التماس - ممن كان عنده احترام عليه - لأن يكتب كتاباً مؤلفاً على النهج الذي ينعكس انعكاساً تاماً من نهج تلك الكتب التي سبق ذكر صفته، فتصدى الإمام - بعد تأمل و تردد قليل - لتأليفه وفقاً على ذلك الالتماس وسار في تأليفه بجد حتى أتمه كتاباً بثوب جديد وسماء بمدارك التنزيل وحقائق التأويل بتوفيق الله تعالى.

المطلب الثالث: مصادر التفسير

لا شك في أن يكون كل المصنفات لا يستغني صاحبه عن الرجوع إلى مصادر يستسقي منها ويثري بها كتابه وكذلك الإمام النسفي بعد القرآن والسنة النبوية، ومأثور الرواية من الصحابة رضوان الله عليهم قد راجع في أثناء تفسيره مدارك التنزيل وحقائق التأويل إلى مصنفات صنف قبله، يأخذها مصادر يعتمد عليها في تصنيفه وسأذكرها فيما يلي مرتباً إلى صنفين:

الأول: المصادر التي ذكرها الإمام مصرحاً بأسماء الكتب

تفسير الكشاف: فقد اعتمد الإمام في تفسيره على كتاب الكشاف للزمخشري من أول التفسير إلى آخره اعتماداً أساسياً، وحتى أخذ منه في بعض المواضع نفس العبارات التي استعملها الكشاف من غير تصرف. على سبيل المثال فإن الإمام يقول في بداية تفسير سورة النحل: "كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعد فقيل لهم: (أتى أمر الله) أي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظر القرب وقوعه." ⁸⁰ فهذا الكلام مقتبس بعينه من كلام الكشاف حرفاً حرفاً. ⁸¹ ويمكن تأويل هذا بأنه قال في مقدمته: "خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل" الذي تقدم ذكره في بيان سبب تأليفه فهذا قد يدل على أنه يريد أن يختصره من الكشاف بترك ما يخالف مذهب أهل السنة والجماعة من الاعتزال. ولكن الإمام مع هذا الاعتماد على الكشاف لم يصرح باسمه إلا في موضعين في تفسيره. أنقلهما فيما يلي:

يقول الإمام نقلاً عن الكشاف في تفسير قوله تعالى: (فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) [سورة البقرة ٢٨٤] "وقال صاحب الكشاف: مدغم الراء في اللام لاحن مخطئ لأن الراء حرف مكرر فيصير

⁸⁰ المصدر السابق، ٢٠٢٢.

⁸¹ الزمخشري، الكشاف، ٥٩٢١٢.

بمنزلة المضاعف ولا يجوز إدغام المضاعف وراوية عن أبي عمرو مخطى مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس في العربية ما يؤذن بجهل عظيم"82.

وفي تفسير قوله تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة: ٢٨٦]: "وقال صاحب الكشاف: الوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس ويصوم أكثر من الشهر ويحج أكثر من حجة."83

تأويلات أهل السنة: ومن أكبر ما يعتمد عليه الإمام في تفسيره كتاب تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي؛ وهو كتاب لا يدانيه كتاب عند أصحابه ولا يوازن به شيء من تصانيف من سبقه لديهم. ويأخذ الإمام النسفي عنه باللفظ والمعنى. فمثلا قال في تفسير الآية الثامنة من سورة البقرة: "قال الشيخ الإمام أبو منصور بن علي -رحمه الله: "الكافر لما لم يسمع قول الحق ولم ينظر في نفسه وغيره من المخلوقات ليرى آثار الحوادث فيعلم أن لا بد له من صانع جعل كأن على بصره وسمعه غشاوة وإن لم يكن ذلك حقيقة وهذا دليل على أن الأسماع عنده داخلية في حكم التغطية."84

مصابيح السنة: ومن المصادر التي رجع إليها الإمام في تفسيره مصابيح السنة للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت ٥١٦ هـ)85. نقل الإمام للحديث عنه في تفسير الآية الأولى من سورة الفاتحة فقال بعد نقله: "والحديث مذكور في صحاح المصابيح."86

وقال أيضا في تفسير الآية السادسة والعشرون من سورة يونس: "قد أورده صاحب المصابيح في الصحاح."87

المبسوط: وهو كتاب يقع في أحد عشر مجلدا لفخر الإسلام علي بن محمد البزدوي، (ت ٤٨٢ هـ)88. فقد نقل الإمام عنه حيث يقول في تفسير البسملة من سورة الفاتحة: "التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا؛ ذكره فخر الإسلام في المبسوط."89

82 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ٢٣٢١.

83 المصدر السابق، ٢٣٣١.

84 المصدر السابق، ٤٦١.

85 حاجي خليفة، كشف الظنون، ٦ ٤٩٣.

86 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ٢٦١.

87 المصدر السابق، ١٨٢.

88 حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢٣٦١٦.

89 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ٢٦١.

الكافي: وهو كتاب للإمام النسفي.⁹⁰ فقد صرح الإمام بالعزو إليه في مسألة البسمة عند تفسيره سورة الفاتحة وقال: "وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلها آية من القرآن وتام تقريره في الكافي." ⁹¹

شرح المنار: وهو كتاب للإمام النسفي⁹². فنقل الإمام عنه بعض الفقرات ومنها:
قول الإمام في تفسير قوله تعالى: (الْوَصِيَّةُ لِلْوَالدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) [البقرة: ١٨٠]: "وكانت للوارث في بدء الإسلام فنسخت بآية المواريث كما بيناه في شرح المنار." ⁹³
وقوله في تفسير قوله تعالى: "(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ)" [النساء: ٢٣]: "والمراد تحريم نكاحهن عند البعض وقد ذكرنا المختار في شرح المنار." ⁹⁴

الإشارة في القراءات العشر: وهو كتاب للشيخ أبي نصر منصور بن أحمد العراقي، (ت ٤٦٥ هـ). ⁹⁵ ومما نقله عنه قوله عند تفسيره قوله تعالى: (فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) [البقرة: ٢٨٤]: "برفعهما شامي وعاصم أي فهو يغفر ويعذب ويجزهما غيرهم عطا على جواب الشرط وبالإدغام أبو عمرو وكذا في الإشارة والبشارة"⁹⁶.

الوقوف: وهو كتاب لمحمد بن طيفور السجاوندي، (ت ٥٦٠ هـ). ⁹⁷ يقول الإمام في تفسير الآية التاسعة من سورة البقرة: "قال صاحب الوقوف: الوقف لازم على (بمؤمنين) لأنه لو وصل لصار التقدير وما هم بمؤمنين مخادعين فينتفى الوصف كقولك ما هو برجل كاذب." ⁹⁸

التبيان في اعراب القرآن: وهو كتاب لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، (ت ٦١٦ هـ). وينقل الإمام عنه عند تفسيره قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)، [القصص: ٨٠] فيقول: "أصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل في

⁹⁰ تقدم تعريفه عند ذكر مصنفاته.

⁹¹ أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقائق التأويل، ٢٦١.

⁹² سبق التعريف به عند ذكر مصنفاته.

⁹³ أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقائق التأويل، ١٥٧١.

⁹⁴ المصدر السابق، ٣٤٥١.

⁹⁵ حاجي خليفة، كشف الظنون، ٤٤٣١.

⁹⁶ أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقائق التأويل، ٢٣٢١.

⁹⁷ حاجي خليفة، كشف الظنون، ٣٤٧٥، ٨١٤.

⁹⁸ أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقائق التأويل، ٤٨١.

الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى وفي التبيان في إعراب القرآن هو مفعول فعل محذوف أي ألزمكم الله ويلكم. "99

إيجاز البيان في معاني القرآن: وهو كتاب لنجم الدين أبي القاسم محمود بن أبي الحسن النيسابوري، المعروف ببيان الحق، (ت ٥٥٣ هـ) ومما نقله عنه الإمام وأسند إليه قوله عند تفسيره قوله تعالى: (وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقَنَّه رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)، [هود: ١١١]: "وقال صاحب الإيجاز لما فيه معنى الظرف وقد دخل في الكلام اختصار كأنه قيل وإن كلا لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم وقال الكسائي: ليس لي بتشديد لما علم. "100

بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم وقال الكسائي ليس لي بتشديد لما علم. "101

الثاني: المصادر التي ذكرها الإمام مصرحا بأسماء المؤلفين

يأتي في أولها الزَّجَاج: 102

نقل الإمام عنه في عدة مواضع وقال عند تفسيره قوله تعالى: (وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ) [البقرة: ٢٢١]: "ولا تزوجوهم بمسلمة كذا قاله الزجاج". 103 وعند تفسيره قوله تعالى: (صَعِيدًا طَيِّبًا) [النساء: ٤٣]: "قال الزجاج هو وجه الأرض ترابا كان أو غيره وإن كان صخرًا". 104 وعند تفسيره قوله تعالى: (وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ) [البقرة: ١٥]: "أي يمهلهم عن الزجاج". 105 وعند تفسيره قوله تعالى: (قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَاحِرَانِ) [طه: ٦٣]: "وقال الزجاج إن بمعنى نعم. "106

الْقَرَاء: 107

99 المصدر السابق، ٦٥٩/٢.

100 المصدر السابق، ٨٧/٢.

101 المصدر السابق، ٨٧/٢.

102 الإمام، نحوي زمانه، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج، البغدادي، مصنف كتاب معاني القرآن، وله تأليف جمة، لزم المبرد، فكان يعطيه من عمل الزجاج كل يوم درهما، فنصح وعلمه، مات سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢٢/١١.

103 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ١٨٤/١.

104 المصدر السابق، ٣٦١/١.

105 المصدر السابق، ٥٣/١.

106 المصدر السابق، ٣٧١/٢.

107 العلامة، صاحب التصانيف، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور، الأسدي، الكوفي، النحوي، كان ثقة، مات بطريق الحج سنة سبع ومائتين، وله ثلاث وستون سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٩١/٨.

نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (سَفِهَ نَفْسَهُ) [البقرة: ١٣٠]: "وقال الفراء: هو منصوب على التمييز." 108

سيبويه: 109

نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (صَبَغَهُ اللَّهُ) [البقرة: ١٣٧]: "وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه." 110

الأخفش: 111

نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (أَكَادُ أَخْفِيهَا) [طه: ١٥]: "أريد عن الأخفش." 112

الأزهري: 113

نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (فَمَنْ عَفِيَ لَهُ) [البقرة: ١٧٨]: "وقال الأزهري: العفو في اللغة الفضل ومنه يسألونك ماذا ينفقون قل العفو." 114

الجنيد: 115 نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (وَسَيِّدًا) [آل عمران: ٣٩]: "وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضا عن المكون." 116

108 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ١٣١/١.

109 إمام النحو، حجة العرب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي، ثم البصري. وقد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير، عاش اثنتين وثلاثين سنة، مات سنة ثمانين ومائة، وهو أصح، وقيل: سنة ثمان وثمانين ومائة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٤٦/٧.

110 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ١٣٥/١.

111 إمام النحو، أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي، ثم البصري مولى بني مجاش، لزم سيبويه حتى برع وكان من أسنان سيبويه، بل أكبر، وكان أعلم الناس بالكلام وأحذقهم بالجدل، مات سنة نيف عشرة ومائتين، وقيل: سنة عشر. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٣٩/٨.

112 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ٣٥٩/٢.

113 العدل المسند الصدوق، أبو حامد؛ أحمد بن الحسن بن محمد ابن الحسن بن أزهري النيسابوري الشروطي من أولاد المحدثين توفي في رجب سنة ثلاث وستين وأربع مائة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤١٠/١٣.

114 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ١٥٥/١.

115 ابن محمد بن الجنيد النهاوندي، ثم البغدادي القواريري، هو شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، مات سبع وتسعين ومائتين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٣١/١١١.

116 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ٢٥٣/١.

التستري: 117 نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا) [يوسف: ١٠١]
"وعن التستري مسلماً إليك أمري." 118

المُبرَّد: 119 نقل الإمام عنه وقال عند تفسيره قوله تعالى: (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) [سورة مريم: ٢٠]:
"والبغي فعول عند المبرد." 120

فلا شك أن هناك مصادر أخرى، وأريد أن أكتفي في البحث بهذا القدر الذي يوضح هذه المسألة.

المطلب الرابع: مميزات التفسير

ويمكن أن نختصر مميزاته الى ما يلي:

أنه يعد من أهم كتب التفسير بالرأي. 121

وأنه يمتاز بإقلاله من الاسرائيليات، وابتعاده ما استطاع عنها.

وأنه يمتاز بتحريره في اختيار أكثر الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث
الموضوعة في فضائل السور.

وأنه لم يتوسع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيلات فرعية، تشتت الذهن، وتبتعد بالقارئ عن
الجو القرآني.

وأنه لم يخل من الإشارة إلى المذاهب الفقهية في بعض آيات الأحكام، والانتصار لمذهبه الحنفي.

122

وأنه من كتب التفاسير الوسيطة، لا هو بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وهو يعتبر بحق
مختصراً لتفسير الكشاف غير أنه صانه من الآراء الاعتزالية التي بثها الزمخشري في تفسيره، وحذف
منه طريقة السؤال والجواب. 123

117 سهل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد التستري الصوفي، الزاهد، شيخ العارفين، وتوفي ثلاث وثمانين و مائتين.
الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٨١/٥.

118 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ١٣٦/٢.

119 إمام النحو، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، البصري، النحوي الأخباري، صاحب الكامل،
مات في أول سنة ست وثمانين ومائتين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٤٦/١٠.

120 أبو البركات النسفي، مدار التنزيل وحقق التأويل، ٣٣٠/٢.

121 عبد الله خضر حمد، الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية، (بيروت: دار القلم، ١٤٣٨ / ٢٠١٧)، ١٣٢/١.

122 منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٢١٧-٢١٨.

123 محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ١٣٨.



المبحث الثالث: منهج الإمام النسفي في التفسير

لقد أوضح الإمام النسفي منهجه في التفسير في مقدمته وقال: "قد سألني من تتعين إجابته، كتابا وسطا في التأويلات، جامعا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنا لدقائق علمي البديع والإشارات، حاليا بأقويل أهل السنة والجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلا وأوخر أخرى، استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذا لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته في مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل." ¹²⁴

والحقيقة أن الناظر في هذا التفسير يجد فيه أن الإمام أخذ فيه لنفسه منهج الوسطية لا بالطويل الممل ولا بالقصير المخل "وهو يعتبر بحق مختصرا لتفسير الكشاف غير أنه صانه من الآراء الاعتزالية التي بثها الزمخشري في تفسيره، وحذف منه طريقة السؤال والجواب، وهو من التفاسير التي تعنى بالتنبيه إلى القراءات السبع المتواترة، ونسبة كل قراءة إلى قارئها،" ¹²⁵ وأخذ من الزمخشري في كشفه خبرته الواسعة باللغة. ¹²⁶

وهو كما يقول صاحبه يجمع بين وجوه الإعراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيرا، ¹²⁷ ولم يتوسع في الإعراب، ولم يدخل في تفصيلات فرعية، تشتت ذهن، وتبتعد بالقارئ عن الجو القرآني. ¹²⁸

وعلى الرغم من كونه في ضمن كتب التفسير بالرأي أنه لم يترك جانب التفسير بالمأثور -ولو كان قليلا- حيث يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة المطهرة وبأقوال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

ويذكر المذاهب والآراء الفقهية في بعض آيات الأحكام انتصارا لمذهبه الحنفي ويهتم بذكر أسباب النزول ويورد في ذلك الصحيح والضعيف وكذلك يتعرض للكلام في أصول الفقه لأنه يرى أن الإجماع حجة لا يجوز مخالفتها كما كان يقول بجواز الاجتهاد ويدعوا لذلك.

¹²⁴ المصدر السابق، ٢٤١.

¹²⁵ محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (مكتبة السنة)، ١٣٨.

¹²⁶ منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، (القاهرة: دار الكتاب اللبناني، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م)، ٢١٧.

¹²⁷ محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (القاهرة: مكتبة وهبة)، ٢١٧/١.

¹²⁸ منيع بن عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، ٢١٨.

ويتحرى في اختيار أكثر الأحاديث، ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر في تركه ذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور، ويقال من ذكر الإسرائيليات، وقد يذكر بعضها وينبه على عدم صحته وقد يمر على بعضها بدون أن يتعقبه.¹²⁹

وأما في مسائل العقيدة فيبذل جهداً مشكوراً في تقرير مذهب أهل السنة والرد على مذاهب من خالفهم من الفرق الضالة.

وذلك مجمل منهج الإمام في تفسيره وأوضحه بالأمثلة في المطالب التالية:

المطلب الأول: تفسيره القرآن بالقرآن

إن تفسير القرآن بالقرآن من أقوى أنواع التفسير وهذا حق لا مرية فيه، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر." ¹³⁰

والإمام النسفي - رحمه الله - كثيراً ما يفسر القرآن بالقرآن، بأن يورد بأية أو آيات من كتاب الله استشهاداً على ما ذهب إليه من المعنى مبيناً لتلك الآية، أو مؤكداً لمعناها، والأمثلة على استشهاد بالقرآن في تفسيره كثيرة ومن ذلك:

قال الإمام عند تفسيره لقوله تعالى: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: ٧]: "وقيل: المغضوب عليهم: هم اليهود؛ لقوله تعالى: (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) [المائدة: ٦٠]، والضالون: هم النصارى؛ لقوله تعالى: (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ)". [المائدة: ٧٧]¹³¹

وعند تفسيره لقوله تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ) [البقرة: ٣٧] قال: "أي استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها وبنصب آدم ورفع كلمات مكي على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به وهن قوله تعالى: (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)". [الأعراف: ٢٣]¹³²

¹²⁹ محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢١٩.

¹³⁰ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، (دار ابن الجوزي، ١٤٣٨ هـ)،

٢٧١.

¹³¹ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٣١.

¹³² المصدر السابق، ٨٢١.

وعند تفسيره لقوله: (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ) [البقرة: ١٧] يبين معنى كلمة الإضاءة فيقول: "الإضاءة: فرط الإنارة، ومصادقه قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا). "[يونس: ٥]

133

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَاءً) [البقرة: ٢٢]، فُسِّرَ بناء سقفاً، واستدل بآية في سورة الأنبياء فقال: "والسمااء بناء: سقفاً، كقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا). "[الأنبياء: ٣٢] 134

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ)، [البقرة: ٢٧٢] يبين معنى تظلمون، فيقول: "ولا تنقصون، كقوله تعالى: (وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا) [الكهف: ٣٣]، أي: لم تنقص. " 135

المطلب الثاني: تفسيره القرآن بالسنة

لا خلاف في كون السنة المصدر الثاني في التشريع فضلا عن التفسير فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له، كما نص عليه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مقدمته في أصول التفسير. 136

والإمام النَّسَفِيُّ - رحمه الله - نهج في تفسيره المأثور عن رسول الله ﷺ، غير أن عنايته بذلك ليست كثيرة، فهو لم يهتم بعزو الأحاديث إلى مخرجيها من أصحاب الكتب الستة وغيرهم، في كل أحواله، ولا يحكم على الحديث من حيث السند والمتن، أو الصحة والضعف، أو القبول والرد.

ومن الأمثلة على تفسيره القرآن بالسنة:

ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ٢] حيث قال: «لا ريب لا شك، وهو مصدر رابني إذا حصل فيك الريبة، وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ: " دَعَ ما يريبيك إلى ما لا يريبيك فَإِنَّ الشَّكَّ رَيْبَةٌ، وإن الصدق طمأنينة. " 137

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى) [البقرة: ١٧٧] يوضح سبب تقديم يوضح سبب تقديم ذوي القربى على غيرهم، وفضل الصدقة عليهم بحديث رسول الله ﷺ فيقول: «ذوي

133 المصدر السابق، ٥٥١.

134 المصدر السابق، ٦٢١-٦٣.

135 المصدر السابق، ٢٢٢١.

136 مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ٢٧٩.

137 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٨١.

القربى: أي: القرابة، وقدمهم؛ لأنهم أحقُّ، قال رسول الله ﷺ: "صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذوي رحمك صدقة وصلة." 138

وعند تفسيره لقوله تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ) [البقرة: ٢٧٦] يفسر معنى يُزِيلُ فيقول: ويربي الصدقات: يُنمِّيها، ويزيدها، أي: يزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة، وبيارك فيه، وفي الحديث: "ما نقصت زكاة من مال قط." 139

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) [البقرة: ٢٢٨] يبين معنى قُرُوء فيقول: "ثلاثة قروء جمع قرء أو قرء، وهو الحيض، لقوله ﷺ: "دعي الصلاة أيام أقرائك" وقوله ﷺ: "طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان ولم يقل: طهران." 140

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا) [آل عمران: ١٠٣] يبين معنى هذه الآية بقول النبي ﷺ حيث قال: "تمسكوا بالقرآن لقوله ﷺ: "القرآن حبل الله المتين، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هُدي إلى صراطٍ مُسْتَقِيم." 141

المطلب الثالث: تفسيره القرآن بأقوال الصحابة

إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختلفوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ مثل: عبد الله بن مسعود... وعبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال ﷺ: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل!" 142

ولذا فقد اعتنى الإمام النَّسَفِيُّ - رحمه الله - واهتم بذكر أقوال الصحابة في تفسيره، وما ذلك إلا دراية منه بأهمية ذلك، فقد أكثر النقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وعن غيره.

ومن الأمثلة على تفسيره للقرآن بأقوال الصحابة:

138 المصدر السابق، ١٥٣/١.

139 المصدر السابق، ٢٢٥/١.

140 المصدر السابق، ١٨٩/١.

141 المصدر السابق، ٢٧٩/١.

142 مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ٢٥٤.

عند تفسيره لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) [البقرة: ٢١] قال الإمام النسفي: "وحدوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل عبادة في القرآن هي التوحيد. "143

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) [البقرة: ٣٤]، قال: أي: اخضعوا له، وأقروا بالفضل له، وعن أبي بن كعب وعن ابن عباس "كان ذلك انحناء، ولم يكن خروراً على الذقن. "144

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة: ١٥٧] قال: "الطريق الصواب حيث استرجعوا وأذعنوا لأمر الله، قال عمر رضي الله عنه: نعم العدلان ونعم الصلاة. أي: الصلاة والرحمة والاهتداء. "145

وفي حديثه عن ترك التسمية في بداية سورة التوبة ذكر بعض أقوال الصحابة فقال: "وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال: فعن علي وابن عباس رضي الله عنهما أن بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان. وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية قال: اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا، وتوفي رسول الله ﷺ -ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال؛ لأن فيها ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود، فلذلك قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين، وتُعدان السابعة من الطوال وهي سبع وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فُرجة لقول من قال هما سورتان، وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة. "146

المطلب الرابع: تفسيره القرآن بأقوال التابعين

التابعي هو من صحب الصحابي وقيل من لقي الصحابي. 147 قال الله تعالى في حقهم: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١٠٠]. وقد ذكرهم رسول الله في حديث رواه البخاري، فقال: " خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. "148 ولقد تلقى التابعون تفسير

143 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٦٢١١.

144 المصدر السابق، ٨٠١١.

145 المصدر السابق، ١٤٥١١.

146 المصدر السابق، ٦٦١١١.

147 عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، معرفة أنواع علم الحديث، تحقيق: عبد اللطيف المهيم - ماهر ياسين الفحل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م)، ٤٠٥.

148 أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، "الرقاق"، ٧.

القرآن الكريم من الصحابة، وكان لهم من حسن الفهم، وصحة المقصد، وسلامة اللغة ما ي أهلهم لصحبة الصحابة، ولذا نجد أن المفسرين يرجعون إلى أقوالهم في التفسير، إذا لم يجدوا أقوالاً للصحابة.

قال ابن تيمية رحمه الله: "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير." 149
وقد اعتمد الإمام النسفي - رحمه الله - في تفسيره لكتاب الله تعالى على أقوال هؤلاء التابعين، فتارة يقدم أقوالهم، وتارة يجمعها مع أقوال غيرهم من الصحابة، وتارة يخرج عنها.
ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

وفي تفسير قوله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) [البقرة: ٨٠] يقول: "أربعين يوماً عدد أيام العجل، وعن مجاهد كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان ألف سنة يوماً." 150

وعند تفسيره لقوله تعالى: (أَفَنُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) [البقرة: ٨٥] يقول: " (أَفَنُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ) بفداء الأسرى، (وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) بالقتال والإجلاء قال السدي: أخذ الله عليهم أربعة عهود ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء." 151

وفي تفسيره لقوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَاءٌ، وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٥٤] مخبراً عن حياة الشهيد، يقول الإمام النسفي رحمه الله: "ولا تعلمون ذلك؛ لأن حياة الشهيد لا تعلم حساً، عن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الوجع، وعن مجاهد: يرزقون ثمر الجنة، ويجدون ريحها وليسوا فيها." 152

وفي تفسيره لقوله تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُزُورِ) [آل عمران: ١٨٥] يقول: "وعن سعيد بن جبير إنما هذا لمن أثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ، وعن الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات، لا حاصل لها." 153

149 مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ٢٥٨.

150 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٠٤/١.

151 المصدر السابق، ١٠٧/١.

152 المصدر السابق، ١٤٣/١-١٤٤.

153 المصدر السابق، ٣١٨/١.

المطلب الخامس: تفسيره القرآن بالرأي

يناسب هنا أن نتعارف بالرأي و"يطلق الرأي على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه: أصحاب الرأي: أي أصحاب القياس. والمراد بالرأي هنا "الاجتهاد" وعلى هذا فالتفسير بالرأي، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانتها في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.¹⁵⁴

ونذكر قليلا في جواز تفسير القرآن بالرأي ومواقف لمفسرين في هذه المسألة.

فاختلف العلماء من قديم الزمان في جواز تفسير القرآن بالرأي، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

الموقف الأول:

أصحاب هذا الموقف تشددوا في هذه المسألة فلم يجزؤوا على تفسير شيء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم، وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن وإن كان عالما أديبا متسعا في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وإنما له أن ينتهي إلى ما روى النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضى الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين.

الموقف الثاني:

كان موقف أصحاب هذا الموقف على العكس من الموقف الأول، فلم يروا بأسا من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده.¹⁵⁵

فينقسم التفسير بالرأي الى قسمين من جانب كونه موافقا على الكتاب والسنة وعلى كلام العرب ومراعي على سائر شروط التفسير وعدم كونه موافقا على ذلك كله أو أي أحد منه.

فالتفسير بالرأي قسمان:

القسم الأول: قسم جار على موافقة كلام العرب، ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأي.

¹⁵⁴ محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ١٨٣/١.

¹⁵⁵ المصدر السابق.

القسم الثاني: قسم غير جارٍ على قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوف لشرائط التفسير، وهذا هو مورد النهي ومحط الذم.¹⁵⁶

لا شك أن التفسير بالرأي المتوافر للشروط جائز وممدوح عند المفسرين والإمام النسفي -رحمه الله- من المفسرين بالرأي الممدوح، فهو كثيراً ما يهتم عند تفسير الآيات بذكر مناسباتها وترباطها بعضها ببعض، وبيان أسرار التعبير فيها ويستدل بها على المعنى المراد. وأحاول فيما يلي أن أستعرض أمثلة على التفسير بالرأي عند الإمام النسفي بذكر عنايته بالمناسبات بين الآيات، وعنايته بأسرار التعبير فيها.

المطلب السادس: عنايته بالمناسبات بين الآيات

والحقيقة أن المناسبة بين الآيات علم شريف تحزّر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، وهو يجعل الآيات في كتاب الله تعالى بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط بينها، فتكون متلائمة الأجزاء، محكمة البناء.¹⁵⁷

ولقد تعرض النسفي لمناسبة الآيات لما قبلها وبعدها، وارتباط ذلك بمعنى الآيات، ومن الأمثلة على ذلك:

فيقول الإمام عند تفسيره لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) [البقرة: ٢١] وهو يريد أن يثبت الترابط بين هذه الآية والآيات السابقات لها: "لما عدد الله فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها أقبل عليهم بالخطاب -وهو من الالتفات المذكور- فقال: (يا أيها الناس)."¹⁵⁸

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ٢٣]، وهو يربط بين هذه الآية مع الآية السابقة لها (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢٢]: "ولما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويبطل الإشراك لخلقهم أحياء قادرين وخلق الأرض التي هي مثواهم ومستقرهم وخلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار وما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها

¹⁵⁶ المصدر السابق، ١٨٨١-١٨٩.

¹⁵⁷ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣٥١-٣٦.

¹⁵⁸ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٦١١.

والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الثمار رزقا لبني آدم فهذا كله دليل موصل إلى التوحيد مبطل للإشراك لأن شيئا من المخلوقات لا يقدر على إيجاد شيء منها عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يقرر إعجاز القرآن فقال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ) "159

ويقول عند تفسيره لقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٥] وهو يبين ثبوت المناسبة بين هذه الآية والآية السابقة لها) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٤]: "فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب ففاه بذكر المؤمنين وأعمالهم وتبشيرهم بقوله (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) "160

المطلب الثامن: عنايته بأسرار التعبير في الآيات

والعناية بأسرار التعبير في الآيات من التفسير بالرأي المحمود كما تقدم في بيان جواز تفسير القرآن بالرأي، وتتضح عناية الإمام النَّسْفِيِّ بها في استنباطه من الآيات معانٍ بليغة ودلالات ذات أثر في نفوس السامعين ومن الأمثلة على ذلك:

عند تفسيره قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ٥] يقول: "ومما اختص به هذا الموضوع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك، وقدمت العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة. "161

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) [البقرة: ٤٥] يقول: " وَاسْتَعِينُوا عَلَى حَوَائِجِكُمْ إِلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ أَي: بالجمع بينهما، وأن تصلوا صابرين على تكاليف الصلاة، محتملين لمشاقها، وما يجب فيها من إخلاص القلب، ودفع الوسواس الشيطانية، والهواجس النفسانية، ومراعاة الآداب والخشوع واستحضار العلم بأنه انتصاب بين يدي جبار السموات

159 المصدر السابق، ٦٣١-٦٤.

160 المصدر السابق، ٦٧١.

161 المصدر السابق، ٣٢١.

والأرض، أو استعينوا على البلايا والنوائب بالصبر عليها، والالتجاء إلى الصلاة عند وقوعها، وكان رسول الله إذا حزبه أمر فَرَّعَ إلى الصلاة. "162

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) [البقرة: ٩٣] يقول: "أي: تداخلهم حبه، والحرص على عبادته، كما يتداخل الصبغ الثوب وقوله: (في قلوبهم) بيان لمكان الإشراب، والمضاف وهو الحب محذوف. "163

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) [البقرة: ١٧٩] يقول: «كلام فصيح، لما فيه من الغرابة، إذ القصاص قتل، وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفاً للحياة، وفي تعريف القصاص، وتنكير الحياة بلاغة بينة؛ لأن المعنى ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة؛ لمنعه عمّا كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان القصاص حياة وأي حياة ! أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل؛ لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل، فتذكر الاقتصاص، ارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فكان شرع القصاص سبب حياة نفسين. " 164

قلت: ولذا جاءت كلمة حياة نكرة للتعظيم والمعنى حياة كبرى، أو عظمى، ثم نجد أنه جل وعلا ختم الآية بقوله تعالى: (يَأُولِي الْأَلْبَابِ)؛ لأن الحكم يحتاج إلى تعقل وتأمل وتدبر حتى يتبين مطابقتها للعقل. فمن أمعن النظر في تفسير هذه الآيات يجد أن الإمام استخرج من أساليب التعبير فيها معانٍ بليغة ودلالات ذات أثر في نفوس السامعين كما هي موضحة من خلال تفسيره هذه الآيات.

المطلب التاسع: خوضه في جانب اللغة

يخوض الإمام النسفي في تفسيره خوضاً عميقاً في اللغة العربية من كل جوانبها، ويتضح ذلك من عنايته بمعاني المفردات والحروف، والأدوات، وبالإعراب، وبالبلاغة، ونذكره فيما يلي بالتفصيل.

اعتنى الإمام النسفي في تفسيره بمعاني المفردات وتوضيح ما تحتمله من معان، مع الاستشهاد لهذه المعاني من كلام العرب، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

ذكره لمعنى كلمة حَتَمَ عند تفسيره قوله تعالى: (حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) [البقرة: ٧] حيث قال: "قال الزجاج: الختم التغطية، لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه. "165

162 المصدر السابق، ٨٦١.

163 المصدر السابق، ١١١١.

164 المصدر السابق، ١٥٦١.

165 المصدر السابق، ٤٥١.

وفي قوله تعالى: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) [البقرة: ٢٦] قال في معنى الفسق: "والفسق الخروج عن القصد، والفساق في الشريعة الخارج عن الأمر بارتكاب الكبيرة." 166

وعند تفسيره لقوله تعالى: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ) [البقرة: ٢٧] يقول في معنى النقض، والعهد: "النَّقْضُ الفسخ وفك التركيب، والعهد الموثق." 167

إن معاني الأدوات مما يحتاج إليه المفسرون، والمراد بالأدوات هنا الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، ومعرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها. 168

ولقد اعتنى الإمام النسفي بمعاني الحروف والأدوات في تفسيره ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٣] حيث قال: "وما في "كما" كافة كما في ربما أو مصدرية كما في "بِمَا رحبت" واللام في الناس للعهد أي كما آمن الرسول ومن معه وهم ناس معهودون أو عبد الله بن سلام وأشياعه أي كما آمن أصحابكم وإخوانكم أو للجنس أي كما آمن الكاملون في الإنسانية أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم والكاف في كما آمن في موضع النصب لأنه صفة مصدر محذوف أي إيماناً مثل إيمان الناس ومثله كما آمن السفهاء والاستفهام في أنؤمن للإنكار" 169.

عند تفسيره قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ٢١] يقول: "ولعل للترجي والإطماع ولكنه إطماع من كريم فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه وبه قال سيبويه وقال قطرب: هو بمعنى كي أي لكي تتقوا."

170 "

والإعراب من المهمات في تفسير القرآن باللغة فلا يفهم القرآن فهما صحيحا مالم تنطق كلماته نطقا صحيحا.

166 المصدر السابق، ٧٤١.

167 المصدر السابق، ٧٥١.

168 عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ١٦٦/٢.

169 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٥١١.

170 المصدر السابق، ٦٢١.

ولذلك عنى به الإمام عناية خاصة كما أشار إليه في مقدمة تفسيره وقال: "جامعا لوجوه الاعراب والقراءات... " ولكن لم يتوسع فيه كثيرا ولم يدخل في تفصيلاته الفرعية ليلتزم منهجه الوسطي حيث قال في مقدمة تفسيره: "ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل"، ومن الأمثلة على ذلك:

عند تفسيره قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ٥] قال: "إيا عند الخليل وسيبويه اسم مضمر والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب وعند الخليل هو اسم مضمر أضيف إيا إليه لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل وقال الكوفيون إياك بكمالها اسم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص والمعنى نخصك بالعبادة." 171

وعند تفسيره قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) [البقرة: ٢] "أي ذلك الكتاب الذي وعد به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام أو ذلك إشارة إلى الم وإنما ذكر اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة لأن الكتاب إن كان خبره كان ذلك في معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير والتأنيث وإن كان صفته فالإشارة به إلى الكتاب صريحا لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له تقول هند ذلك الإنسان أو ذلك الشخص فعل كذا ووجه تأليف ذلك الكتاب مع الم إن جعلت الم اسما للسورة أن يكون الم مبتدأ وذلك مبتدأ ثانيا والكتاب خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول ومعناه أن ذلك هو الكتاب الكامل كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص كما تقول هو الرجل أي الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال وأن يكون الم خبر مبتدأ محذوف أي هذه الم جملة وذلك الكتاب جملة أخرى وإن جعلت الم بمنزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب أي ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل." 172

وعند تفسيره قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [البقرة: ٣] قال: "الَّذِينَ" في موضع رفع أو نصب على المدح أي هم الذين يؤمنون أو أعني الذين يؤمنون أو هو مبتدأ وخبره أولئك على هدى أو جر على أنه صفة للمتقين وهي صفة واردة بيانا وكشفاً للمتقين كقولك زيد الفقيه المحقق لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان الذي هو أساس الحسنات والصلاة والصدقة فهما العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما." 173

ولقد نزل القرآن الكريم على العرب وبلغتهم، كما قال الله تعالى: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء: ١٩٥]، وخاطبهم بأسلوبهم العربي، فالذي يريد معرفة معاني كلام الله تعالى ينبغي أن يكون على دراية بهذه الأساليب، ليتعرف على أسرار التنوع في الخطاب القرآني، وكذلك كان الإمام النسفي رحمه الله، فقد

171 المصدر السابق، ٣١١.

172 المصدر السابق، ٣٨١.

173 المصدر السابق، ٤١١.

ذكر في تفسيره كثيراً من الأساليب والصور البلاغية والبيانية، كالتشبيه والاستعارة، والإيجاز، والتقديم والتأخير، والعطف والاستفهام لغرض بلاغي والحذف والإضمار، وأمثلة ذلك في تفسيره كثير منها:

عند تفسيره قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ٥] يقول: "إياك بكمالها اسم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص والمعنى نخصك بالعبادة وهي أقصى غاية الخضوع والتذلل ونخصك بطلب المعونة وعدل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) [يونس: ٢٢] وقوله: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) [فاطر: ٩]، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملاً لاستلذاذاً إصغائه، وقد تختص مواقع بفعائد ولطائف قلما تتضح إلا للذواق المهرة والعلماء النحارير وقليل ما هم. "174

وعند تفسيره قوله تعالى: (فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) [البقرة: ١٦] يعني بالبلاغة واضحة ويذكر أن فيها مجازاً إسنادياً فيقول: "الربح الفضل على رأس المال والتجارة صناعة التاجر وهو الذي يبيع ويشترى للربح وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد المجازي ومعناه فما ربحوا في تجارتهم إذ التجارة لا تربح ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازاً أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحاً له. "175

وعند تفسيره قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) [البقرة: ٢٢٣] يذكر ما فيها من تشبيه، فيقول: " مواضع حرث لكم وهذا مجاز شبهن بالمحاريث تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور والولد بالنبات. "176

المطلب العاشر: اهتمامه بذكر وجوه القراءات

القراءات جمع قراءة وهي في اللغة مصدر سماعي لقرأ، وفي الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها. 177

174 المصدر السابق، ٣١١١.

175 المصدر السابق، ٥٤١١.

176 المصدر السابق، ١٨٥١١.

177 محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، (مطبعة عيسى البابي الحلبي)، ٤١٢١١.

قال الإمام الزركشي "القراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبه الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما." 178

وإن كل مُفسِّرٍ يحتاج إلى فهم وتطبيق علم القراءات، وكذلك الإمام النسفي فقد اهتم به غاية الاهتمام، حيث اعتمد عليه في تفسيره، وأشار إليه في مقدمته كما تقدم، فقال: قد سألتني من تتعين إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الاعراب والقراءات.

ولقد وفي الإمام النَّسْفِي بما ذكره، فهو يتعرض عند تفسيره للآية للقراءات الواردة في الكلمة، سواء المتواترة¹⁷⁹ منها أو الشاذة¹⁸⁰ ويوجه ويُرجح بعضها، وينسب القراءات إلى قرائها، أحياناً مصرحاً باسم القارئ أحياناً، ويذكر البلد التي ينتسب إليها أحياناً، ولا يذكره مطلقاً أحياناً، ويترك القارئ مجهولاً، ويُعبر عن ذلك بصيغة المبني للمجهول "قُرئ".

ومن الأمثلة التي تعرض الإمام لها على القراءات المتواترة:

ما ذكره في تفسير قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: ٦] حيث قال: "والسراط الجادة من سراط الشيء إذا ابتلعه كأنه يسرط السابلة إذا سلكوه والصراط من قلب السين صاداً لتجانس الطاء في الإطباق لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق وقد تشم الصاد صوت الزاي لأن الزاي إلى الطاء أقرب لأنهما مجهورتان وهي قراءة حمزة¹⁸¹ والسين قراءة ابن كثير¹⁸² في كل القرآن وهي الأصل في الكلمة والباقون بالصاد الخالصة وهي لغة قريش وهي الثابتة في المصحف الإمام." 183

ما ذكره في تفسير قوله تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) [البقرة: ١٠] حيث قال: " (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) كوفي." 184

178 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣١٨/١.

179 المتواتر هو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم: مثاله ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة، وهذا هو الغالب في القراءات. الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ٤٣٠/١.

180 وهو ما لم يصح سنده.

181 حمزة الكوفي هو حمزة بن حبيب بن عمار بن اسمعيل الزيات الفرضي التميمي مولى لهم ويكنى ابا عماره وتوفي بجلوان في خلافة ابي جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة. أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي، التيسير في القراءات السبع، تحقيق: خلف حمود سالم الشغذلي، (السعودية: دار الأندلس، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م)، ٦١١-٧.

182 ابن كثير المكي هو عبد الله بن كثير الداري مولى عمرو بن علقمة الكناني والداري العطار ويكنى ابا معبد وهو من التابعين وتوفي بمكة سنة عشرين ومائة. المصدر السابق، ٤١.

183 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٢١/١.

184 المصدر السابق، ٤٩١/١.

وأقول: يقصد من قوله "الكوفي" عاصم،¹⁸⁵ وحمزة، والكسائي،¹⁸⁶ وخلف.¹⁸⁷

ما ذكره في تفسير قوله تعالى: (فَمَنْ تَبِعْ هَذَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٣٨] حيث قال: فلا خوف بالفتح في كل القرآن يعقوب. " 188، 189

ما ذكره في تفسير قوله تعالى: (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) [البقرة: ٤٨] حيث قال: " ولا تقبل بالتاء مكي وبصري. " 190

وأقول: يقصد بمكي عبد الله بن كثير وببصري أبو عمرو البصري.

ومن الأمثلة التي تعرض الإمام لها على القراءات الشاذة:

ذكره للقراءة الواردة في كلمة فومها في قوله تعالى: (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا) [البقرة: ٦١] حيث قال: " (وَفُومِهَا) هو الحنطة أو الثوم لقراءة ابن مسعود وثومها. " 191

¹⁸⁵ هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من نجدت الثياب إذا سويت بعضها ببعض.

كان قارئاً متقناً آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن قرأ على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرأ أيضاً على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين.

وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام علي وأخذ الإمام علي قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة. توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة. الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ٤٥٨/١.

¹⁸⁶ هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي. لقب بالكسائي لأنه كان في الإحرام لابسا كساء قال أبو بكر الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وكان أوجد الناس بالقرآن فكانوا يكثررون عليه حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلوا القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون منه ويضبطون عنه. توفي سنة ١٨٩ تسع وثمانين ومائة. المصدر السابق، ٤٦٢/١.

¹⁸⁷ هو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار. كان زاهدا عابدا. روى عن سليم بن عيسى الحنفي عن حمزة. وتوفي سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين. المصدر السابق، ٤٦٠/١.

¹⁸⁸ هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي. قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل. وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو. توفي يعقوب سنة ٢٠٥ خمس ومائتين. المصدر السابق، ٤٦٣/١.

¹⁸⁹ أبو البركات النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، ٨٣/١.

¹⁹⁰ المصدر السابق، ٨٧/١.

¹⁹¹ المصدر السابق، ٩٣/١.

ذكره للقراءة الواردة في كلمة يَشَقُّق في قوله تعالى: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) [البقرة: ٧٤] حيث قال: "أصله يتشقق وبه قرأ الأعمش.¹⁹² فقلبت التاء شيئا وأدغمت." ¹⁹³

عند تفسيره لقوله تعالى: (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) [يوسف: ٥٩] يذكر قراءة شاذة ويصرح بشذوذها، فيقول: " اعطى كل واحد منهم حمل بغير وقرئ بكسر الجيم شاذاً." ¹⁹⁴

المطلب إحدى عشر: اهتمامه بذكر أسباب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ومبينة لحكمه أيام وقوعه. ¹⁹⁵ وقال شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله-: " ومعرفة سبب النُّزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب." ¹⁹⁶

والإمام النَّسَفِيُّ - رحمه الله - ذكر في تفسيره أسباب نزول الآيات، وكان يأخذ بأقوال الصحابة والتابعين في أسباب النزول، وَيُرْجِّح أحيانا بها في تفسيره للآية، وغالباً نجده يذكر سبب نزول الآية دون أن يذكر راويها أو يشير إليها بالتصحيح والتضعيف ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

فعند تفسير الإمام النسفي قوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي) [البقرة: ١٨٦] يذكر سبب نزوله ويقول: "ولما قال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقرئ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه نزل (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)." ¹⁹⁷

وعند تفسيره قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ) [البقرة: ١٨٩] يذكر سبب نزوله فيقول: "قال معاذ بن جبل يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلى ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزل (يسألونك عن الأهلّة)." ¹⁹⁸

¹⁹² هو سليمان بن مهران الأعمش أبو محمد الأسدي الكاهلي مولا هم الكوفي الإمام الجليل، ولد سنة ستين مات في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة. شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، غاية النهاية في طبقات القراء، (مكتبة ابن تيمية)، ٣١٥١-٣١٦.

¹⁹³ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٠٢١١.

¹⁹⁴ المصدر السابق، ١٢١١١.

¹⁹⁵ الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ١٠٦١.

¹⁹⁶ تقي الدين أحمد ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٤٩٠ / ١٩٨٠)، ١٦.

¹⁹⁷ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٦٠١١.

¹⁹⁸ المصدر السابق، ١٦٤١١.

وعند تفسيره قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ) [البقرة: ١٩٧] يذكر سبب نزوله فيقول: "ونزل في قوم زعموا أن لا حج لجمال وتاجر وقالوا هؤلاء الداجّ وليسوا بالحاج (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا) في أن تبتغوا في مواسم الحج. "199

وعند تفسيره قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) [البقرة: ٢٧٤] يذكر روايات مختلفة في نزوله فيقول: "هما حالان أي مسرين ومعلنين يعنى يعممون الأوقات والاحوال بالصدقة لحصرهم على الخير فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال وقيل نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة في السر وعشرة في العلانية أو في علي رضى الله عنه لم يملك إلا أربعة دراهم تصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً وبدرهم علانياً. "200

المطلب الاثنا عشر: موقفه من الإسرائيليات

الإسرائيليات فتقبلها الآخذون بها على أنها من الإسلاميات ولهذا يجب النظر في هذه المرويات فإن كانت مما يقرره الإسلام قبلناها وإن كانت مما يردّه رددناها وإن كانت مما سكت عنه سكتنا عنها عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: " لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ. " رواه البخاري. 201، 202 وكذلك يقلّ الإمام النسفي في تفسيره من ذكر الإسرائيليات، وقد يذكر بعضها وينبه على عدم صحته وقد يمر على بعضها بدون أن يتعقبه. 203

ومن الأمثلة على ذلك:

عند تفسيره لقوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) [يوسف: 24] يقول: "وُفِّسَ لَهُمْ يَوْسُفَ بَأَنَّهُ حَلَّ تَكَّةَ سِرَاوِيلَهُ وَقَعَدَ بَيْنَ شَعْبِهَا الْأَرْبَعِ وَهِيَ مُسْتَلْقِيَةٌ عَلَى فَقَاهَا وَفُسِّرَ الْبُرْهَانُ بِأَنَّهُ سَمِعَ صَوْتاً إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا مَرَّتَيْنِ فَسَمِعَ ثَالِثاً أَعْرَضَ عَنْهَا فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِ حَتَّى مَثَلَ لَهُ يَعْقُوبُ عَاضاً عَلَى أُنْمَلَتِهِ وَهُوَ بَاطِلٌ وَيَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِهِ قَوْلُهُ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ أَيْضاً لَمَا بَرَأَ نَفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ وَقَوْلُهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنِ السُّوءُ مُصْرُوفاً عَنْهُ وَقَوْلُهُ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَخَانَهُ بِالْغَيْبِ وَقَوْلُهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ

199 المصدر السابق، ١٧٠/١.

200 المصدر السابق، ٢٢٣/١.

201 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، "التوحيد"، ٥١.

202 الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ٢٨١.

203 محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢١٩/١.

عن نفسه وإنه لمن الصادقين ولأنه لو وجد منا ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام وقد سماه الله مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظر في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء. " 204

فكما نرى يذكر الإمام النسفي صراحة بطلان هذه الرواية وعدم صحتها ويورد دليلاً فيقول: وهو باطل ويدل على بطلانه قوله هي راودتني عن نفسي ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ نفسه من ذلك.

وعند تفسيره قوله تعالى: (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ) [ص: 34] يقول: " قيل فتن سليمان بعد ما مالك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنة أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش لم نفك من السخرة فسيلنا أن نقتله أو نخله فعلم ذلك سليمان عليه السلام فكان يغذوه في السحابة خوفاً من مضرة الشياطين فألقى ولده ميتاً على كرسيه فتنبه على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجاء به على كرسيه فوضع في حجره فوالذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون. " 205

فنراه يذكر هنا من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة سليمان عليه السلام، ثم يقول ما نصه: " وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود. " 206 فقد نبه بطلان تلك الرواية صراحة.

ففي هذه الآية الأخيرة وما قبلها نجد النسفي - رحمه الله - يتصدى للتنبيه والرد على القصص المكذوب الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثّلنا به قبل ذلك، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه على عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب في ذاته، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع. 207

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) [نمل: ١٦] يقول: " روي أنه صاحبت فاختة فأخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين

204 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٠٣/٢.

205 المصدر السابق، ١٥٥/٣.

206 المصدر السابق، ١٥٦/٣.

207 محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢٢٠/١.

وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيراً تجدوه وصاحت رحمة فقال تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري فأخبر أنه يقول سبحان ربي الأعلى وقال الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله والقطاة تقول من سكت سلم والديك يقول في البعد من الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربي القدوس. "208

فيذكر هذه الرواية ثم يتكلم عن قوله تعالى: (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله.

ومما نلاحظه على هذا التفسير في موقفه من الإسرائيليات أنه قد يذكر بعض الخرافات والموضوعات، من قصص وأحاديث ولا يفطن إليها ومن الأمثلة على ذلك.

ما قاله في تفسير قوله تعالى: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) [الأحزاب: ٣٧]، فقد ذكر الرأي الباطل، وهو "وقيل الذي أخفى في نفسه تعلق قلبه بها ومودة مفارقة زيد أياها، ولو اٍ في" وتُخْفِي فِي نَفْسِكَ. "209

وما قاله في تفسير قوله تعالى: (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) [الإنسان: ٨]، فقد ذكر: أنها نزلت في علي، وفاطمة، والحسن والحسين- رضي الله عنهم أجمعين- مع أن السورة كلها مكية. 210

وما قاله في تفسير قوله تعالى: (إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) [الفجر: ٧] فقد ذكر هنا أن المراد بها مدينة وذكر في وصفها عجائب وغرائب. 211

وهي من خرافات بني إسرائيل وكذلك ذكر في كتابه الحديث الموضوع في فضائل القرآن في كل سورة، فلتكن على حذر من كل هذا. 212

المطلب الثالث عشر: خوضه في مسائل الفقه

وذلك عند تفسيره لآية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال، ولكن بدون توسع. 213

208 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٥٩٥/٢.

209 المصدر السابق، ٣٢١٣-٣٣.

210 المصدر السابق، ٥٧٨/٣.

211 المصدر السابق، ٦٣٨/٣.

212 محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ١٣٨.

213 محمد السيد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ٢١٩/١.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) [البقرة: ٢٢٢] يقول ما نصه: " ثم عند أبي حنيفة وأبي يوسف - رحمهما الله - يجتنب ما اشتمل عليه الإزار. ومحمد - رحمه الله - لا يُوجب إلا اعتزال الفرج، وقالت عائشة رضى الله عنها: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك. (وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ) مجامعين، أو: ولا تقربوا مجامعتهن حتى يَطْهُرْنَ بالتشديد - كوفي غير حفص - أي يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء في الطاء لقرب مخرجيهما. غيرهم (يَطْهُرْنَ) أي ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما. وقلنا: له أن يقربها في أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، عملاً بقراءة التخفيف، وفي أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضي عليها وقت الصلاة، عملاً بقراءة التشديد، والحمل على هذا أولى من العكس، لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عُرف. وعند الشافعي - رحمه الله - لا يقربها حتى تطهر وتتطهر، دليله قوله تعالى: (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ) فجامعوهن، فجمع بينهما. "214

وهو ينتصر لمذهبه الحنفي ويرد على مَنْ خالفه في كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى: (وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) [البقرة: ٢٢٨]. 215

المطلب الرابع عشر: تقريره في مسائل العقيدة مذهب أهل السنة والرد على مذاهب من خالفهم من الفرق الضالة

فهو في تفسيره لم يكن يسعى لغرض التفسير وحده، ولكنه كان يجد في عمله هذا فرصة مناسبة للرد على مخالفيه، ولتنشيط آرائه. ويأتي في طليعة هذه الفرق: المعتزلة والجهمية، والكرامية، والروافض، إلا أن ذلك لم يكن بعد عرض مفصل لآراء هذه الفرق في المسألة التي يناقشها، إنما كان يكتفي بقوله: خلافاً للمعتزلة أو الكرامية... ، وربما دعاه إلى ذلك اختصاره الشديد، ورغبته في أن يكون كتابه جامعاً لكافة العلوم في كلمات موجزة مختصرة، تضامناً مع الغاية الأساسية من تأليف هذا الكتاب، وتتجلى هذه الأمور في الأمثلة الآتية:

عند تفسيره لقوله تعالى: (حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) [البقرة: ٧] يقول الإمام النسفي: " والآية حجة لنا على المعتزلة في الأصلح فإنه أخبر أنه ختم على قلوبهم ولا شك أن ترك الختم أصلح لهم. "216

214 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٨٥١.

215 المصدر السابق، ١٨٥١.

216 المصدر السابق، ٤٦١.

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) [البقرة: ٨] يقول: " والآية تنفي قول الكرامية إن الإيمان هو الإقرار باللسان لا غير لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم وتؤيد قول أهل السنة إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان. " 217

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) [البقرة: ٢٥]، يقول: " والآية حجة على من جعل الأعمال إيماناً لأنه عطف الأعمال الصالحة على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه ولا يقال إنكم تقولون يجوز أن يدخل المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة والله تعالى بشر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً لأن البشارة المطلقة بالجنة شرطها اقتران الأعمال الصالحة بالإيمان ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة. " 218

المطلب الخامس عشر: عنايته في أصول الفقه

عند تفسيره لقوله تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: ١١٥] يقول: " (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) أي السبيل الذي عليه من الدين الحنفي وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة لأن الله تعالى جمع بين اتباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاققة الرسول في الشرط وجعل جزاءه الوعيد الشديد فكان اتباعهم واجباً كموالاة الرسول. " 219

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) [البقرة: ١٥٩] يقول: " وفيه دلالة جواز الاجتهاد وبيان أن القياس حجة. " 220

وعند تفسيره لقوله تعالى: (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [الأنفال: ٦٨] يقول: " (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ) لولا حكم من الله سَبَقَ أن لا يعذب أحداً على العلم بالاجتهاد وكان هذا اجتهاد منهم لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد وخفي عليهم إن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم أو ما كتب الله في اللوح أن لا يعذب أهل بدر أو

217 المصدر السابق، ٤٨١.

218 المصدر السابق، ٦٨١.

219 المصدر السابق، ٣٩٦.

220 المصدر السابق، ٣٠٥.

كان لا يؤخذ قبل البيان والإعذار وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكري القياس. "221



221 المصدر السابق، ٦٥٧/١.

الفصل الأول: دلالة السياق في التفسير



المبحث الأول: تعريف دلالة السياق

إن مفهوم دلالة السياق مصطلح مركب من كلمتين الدلالة والسياق ولكل كلمة في المصطلح مرادها الذي تنفرد به في المعنى فلا بد من التعرف عليه لأن "المركب هو ما أريد بجزء لفظه الدلالة على جزء معناه." ²²² فيجب علينا أن نتعرف جزئي المصطلح على حدة.

المطلب الأول: تعريف الدلالة لغة

أصل كلمة الدلالة في اللغة مصدر كالكتابة والإمارة، والدالّ من حصل منه ذلك والدليل في المبالغة كعالم وعليم وقادر وقدير، ثم يسمّى الدالّ والدليل دلالة، كتسمية الشيء بمصدره. وجاء في المفردات للراغب الأصبهاني أن الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات، والرموز، والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة، أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي، كما قال تعالى: (مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ) [سبأ: ١٤]. ²²³

وقال ابن منظور: "دلّ على الطريق يدلّ دلالة ودلالة ودلولة؛ وبفتح الدالّ أفصح وأعلى، والجمع: أدلّة وأدلاء، والاسم: الدلالة والدلالة، بالكسر والفتح، والدليل: الذي يدلّك، وما يدلّك، والدالّ؛ ودللت بهذا الطريق: عرفته، ومنه قوله تعالى: ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً، وقال سيبويه: والدليلي علمه بالدلالة ورسوخه فيها؛ وقال ابن الأعرابي: دلّ يدلّ إذا هدى." ²²⁴

وقال ابن الفارس: "دلّ أصله اللغوي إبانة الشيء بأمانة تتعلمها، ومنه قولهم: دللت فلانا على الطريق والدليل الأمارة في الشيء وهو بين الدلالة والدلالة." ²²⁵

²²² محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، قواعد الفقه، (الباكستان: الكراتشي، الصدف ببلشرز، ١٤٠٧ | ١٩٨٦)، ٤٧٨.

²²³ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (بيروت: دار القلم، ١٤١٢ | ١٩٩٢)، ٣١٦-٣١٧.

²²⁴ ابن منظور، لسان العرب، ٢٤٩ | ١١.

²²⁵ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ٢٥٩ | ١٩٧٩)، ١٣٩٩.

وقال الزمخشري: "دلّه على الطريق، وهو دليل المفازة وهم أدلاؤها، وأدلت الطريق اهتديت إليه. ومن المجاز " الدالّ على الخير كفاعله ". ودلّه على الصراط المستقيم. ولي على هذا دلائل. وتناصرت أدلّة العقل، وأدلة السمع. واستدل به عليه. "226

فيظهر فيما سبق أن كانت كلمة الدلالة تستخدم في المحسوسات ثم تطورت دلالتها فاستعملت في المعنويات والمعقولات. وفي ضوء ما تقدم من المعاني نجد أن المعنى اللغوي للدلالة يدور حول: الهداية والإرشاد، أو العلم بالطريق ودلالة الناس اليه، إبانة الشيء بأمارته، أو ما يتوصل به إلى معرفة الشيء وهو الذي يعيننا في هذا البحث.

المطلب الثاني: تعريف الدلالة اصطلاحاً

والدلالة في اصطلاح أصول الفقه هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والشيء الأول هو الدال والثاني المدلول وبالكسر حرفة الدلال وما جعلته للدلال أو الدليل من الأجرة. 227 وقال الجرجاني: الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص. ووجه ضبطه أن الحكم المستفاد من النظم إما أن يكون ثابتاً بنفس النظم، أو لا، والأول: إن كان النظم مسوقاً له، فهو العبارة، وإلا فالإشارة، والثاني: إن كان الحكم مفهوماً من اللفظ لغة فهو الدلالة، أو شرعاً فهو الاقتضاء؛ فدلالة النص عبارة عما ثبت بمعنى النص لغة لا اجتهداً. فقوله: لغة، أي يعرفه كل من يعرف هذا اللسان بمجرد سماع اللفظ من غير تأمل، كالنهي عن التأفيف في قوله تعالى: (فلا تقل لهما أف) [٢]، يوقف به على حرمة الضرب وغيره مما فيه نوع من الأذى بدون الاجتهاد. 228

وهذا هو أصح التعريفات التي قيلت؛ لأنه يدل على أن هناك تلازماً بين الدال والمدلول، بحيث إذا فهم الدال فهم المدلول. فالشيء الأول هو: الدال، والشيء الثاني هو المدلول، سواء كان هذا اللزوم عقلياً أو عرفياً دائماً أو غيره، وسواء كان كلياً أو جزئياً. 229

226 أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨/١٤١٩)، ٢٩٥/١.

227 محمد عويم الإحسان المجددي البركتي، قواعد الفقه، ٢٩٣/٢.

228 علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٩٨٣/١٤٠٣)، ١٠٤.

229 عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، المذهب في علم أصول الفقه المقارن، (الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٩٩/١٤٢٠)، ١٠٥/٣.

ونلاحظ هنا أن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة وهي أن الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء بالعلامات سواء أكانت العلامات لغوية أم غير لغوية.

المطلب الثالث: تعريف السياق لغة

أصل كلمة السياق سِوَاق؛ فقلبت الواو ياءً لكسرة السين التي ما قبلها؛ وهو مصدر ساق يسوق
230.

قال ابن فارس: سوق السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء. يقال ساقه يسوقه سواقا. والسيفة: ما استيق من الدواب. ويقال سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته. والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء. 231

وذكر الراغب الأصبهاني في المفردات: "سوق الإبل: جلبها وطردها، يقال: سقته فانساق، والسيفة: ما يساق من الدواب. وسقت المهر إلى المرأة، وذلك أن مهورهم كانت الإبل" 232.
وقال ابن منظور: "قد انسقت وتساققت الإبل تساقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساققة... ويقال ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على إثر بعض ليس بينهم جارية" 233.

ونقل عن الزمخشري "ساق الله إليه خيرا. وساق إليها المهر. وسأقت الريح السحاب. وأردت هذه الدار بثمان، فساقها الله إليك وهو يساقوه ويقاوده، وتساققت الإبل: تتابعت. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و"إليك يساق الحديث" وهذا الكلام مساقاة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده" 234.
وبالنظر فيما سبق من المعنى اللغوي للسياق نجد أن أغلب هذه التعريفات والاستعمالات تدور على معنى التتابع والتوالي والاتصال والتسلسل والسرد، وسياق الكلام من تواليه وتتابعه واتصاله وتسلسله وسرده.

230 شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، تحقيق: عبد الحميد هندواي، (الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز)، ١٤١٣هـ.

231 ابن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، ١١٨/٣.

232 الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ٤٣٦.

233 ابن منظور، لسان العرب، ١٠-١٦٦-١٦٩.

234 الزمخشري، أساس البلاغة، ٤٨٤/١.

المطلب الرابع: تعريف السياق اصطلاحاً

ومعلوم أن التعريف الاصطلاحي مأخوذ من المعنى اللغوي فيحمل معنى السياق في الاصطلاح معنى التتابع وتوالي الكلام إثر بعضه وهناك تعريفات كثيرة للسياق وسأقتصر على ذكر أهم التعاريف؛ لأن الهدف هو إيضاح معنى السياق.

فلم يرد تعريف خاص للسياق في كتب العلماء القدامى، ويمكن لنا أن نستخرج من كتبهم ما يعتمد عليه في وضع تعريف له، ومما ذكره في شأن السياق، ما أورد الزركشي في البحر المحيط، حيث قال: "ويجب اعتبار ما دل عليه السياق والقرائن، لأن بذلك يتبين مقصود الكلام." 235

فبين الزركشي في كلامه أن السياق هو ما يدل على مقصود الكلام.

وكذلك ما ذكره ابن دقيق العيد في أثناء كلامه عن السياق، حيث قال: "لأن السياق مبين للمجملات، مرجح لبعض الاحتمالات، مؤكداً للواضحات." 236

وفهم من هذا الكلام أن السياق له تأثير على بيان المجمل، وترجيح أحد المعاني المحتملة، وتأكيده ما هو واضح.

وعرفه سعيد بن محمد الشهراني بقوله: "هو ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال المخاطب والمخاطب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه." 237

وشرح هذا التعريف وقال: "وأعني بالعوامل الداخلية: السياق الداخلي، والخارجية: السياق الخارجي، وقوله: لها أثر في فهمه؛ أي: فهم النص القرآني، وقوله: حال المخاطب: وهو الله، وقوله: والمخاطب: هم من عاصر فترة التنزل من المؤمنين أو المنافقين أو المشركين، وقوله: الغرض الذي سيق له؛ أي: حال ورود الخطاب فقد يكون من باب الثناء والمدح، أو التوبيخ والزر، وقوله: الجو الذي نزل فيه؛ أي: مكان نزول الآية والحال التي نزلت فيه الآيات." 238

235 بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، (دار الكتب، ١٩٩٤/١٤١٤)، ٢٩٠/٤.

236 تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، شرح الإمام بأحاديث الأحكام، تحقيق: محمد خلوف العبد الله، (سوريا: دار النوادر، ٢٠٠٩/١٤٣٠)، ١٢٦/١.

237 سعيد بن محمد الشهراني، السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، (السعودية: كرسي القرآن وعلومه- جامعة الملك سعود، ١٤٣٦)، ٢٩.

238 المصدر السابق، نفس الصفحة.

وهو أوفق التعاريف وأكثرها دقة وشمولا؛ لأنه أدخل في التعريف سياق الحال أو المقام، وهو ما يصاحب النص من أحوال وعوامل خارجية لها أثر في فهمه؛ كحال المتكلم والمخاطب والبيئة التي ورد فيها والغرض الذي سيق له. وهذه كلها لها تأثير على الفهم الصحيح للنص.

فعلى هذا يكون السياق القرآني هو السياق الداخلي الذي يعني بالنظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم، أخذا بالاعتبار ما قبلها وما بعدها في الآية، وقد تحتاج الى الآيات السابقة واللاحقة.

وقد ظهر فيما سبق من التعريفات أن العلاقة ثابتة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي بالنسبة للسياق وهي أن السياق تتابع الكلام وتساققه وتقاوده وفهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده.

وبعد التعرف المفصل بالدلالة وحدها، وبالسياق وحده؛ نركّب الكلمتين بالتركيب الإضافي فيظهر لنا مصطلح جديد بمفهوم آخر وهو مصطلح دلالة السياق.

فيقع مصطلح دلالة السياق حيث يشتمل التركيب اللغوي على مجموعة من العلاقات، فكل كلمة علاقة بما قبلها وبما بعدها، فهي التي تستمد من وقوع تركيب الكلام في سياقات مختلفة.

المطلب الخامس: تعريف مصطلح دلالة السياق

فيمكن لنا أن نعرّف دلالة السياق في تفسير القرآن بأنه: " تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال.

" 239

فنفهم من هذا الاصطلاح أن دلالة السياق في تفسير القرآن هي دلالة تأتي من بيان المعنى من خلال تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة.²⁴⁰

ولقد جاءت النصوص من العلماء والمفسرين في تحديد المعنى الاصطلاحي للدلالة السياق ومنها ما يلي:

قال الإمام الشافعي – رحمه الله - في الرسالة: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر ويستغنى بأول هذا منه عن آخره وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص

²³⁹ عبد الفتاح محمود المثني، نظرية السياق القرآني، (عمان: دار وائل، ٢٠٠٨)، ١٥.

²⁴⁰ المطيري، السياق القرآني وأثره في التفسير، ٧٢.

فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه وعاما ظاهرا يراد به الخاص وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. " 241

وقال مسلم بن يسار²⁴²: "إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنتظر ما قبله وما بعده." 243

وقال الإمام الزركشي رحمه الله: "ما لم يرد فيه (أي: القرآن) نقل عن المفسرين وهو قليل وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرا في كتاب المفردات فيذكر قيما زائدا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق." 244

وفي موضع آخر قال: "دلالة السياق فإنها ترشد إلى تبين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته وانظر إلى قوله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان: ٤٩] كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق." 245

وقال الأنباري رحمه الله: " كلام العرب يصحح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد؛ فمن ذلك قول الشاعر:

كل شيء ما خلا الموت جلل... والفتى يسعى ويلهيه الأمل.

فدل ما تقدم قبل جلل وتأخر بعده على أن معناه كل شيء ما خلا الموت يسير؛ ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن الجلل هاهنا معناه عظيم." 246

²⁴¹ محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٧، ١٩٣٨)، ٥٢.

²⁴² ذكره الشيرازي في فقهاء التابعين بالبصرة وأنه كان يعد خامس خمسة من فقهاء أهل البصرة. أنظر: أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، (ت ٤٧٦هـ). أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠)، ٨٨.

²⁴³ أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي البصري، ثم الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (دار طيبة، ١٩٩٩/١٤٢٠)، ١٣١.

²⁴⁴ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١٧٢٢.

²⁴⁵ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢٠٠٢.

²⁴⁶ أبو بكر، محمد بن القاسم الأنباري، الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٧)، ٢، ١٤٠٨.

وبعد دراسة هذا المصطلح ببيان مفرداته واستعمال أهل العلم له، يمكنني أن أذكر التعريف المختار لمفهوم مصطلح ادلالة السياق وهو بيان الكلمة أو الجملة القرآنية منتظمة مع ما قبلها وما بعدها.

فيراد ببيان الكلمة أو الجملة القرآنية الدليل وهو الدلالة، ويراد بمنتظمة مع ما قبلها وما بعدها وقوع هذه الدلالة ضمن سياق الكلمة أو الجملة القرآنية سابقا ولحاقا.

فيفهم كلام الله - عز وجل - من السياق، بمراعاة أمرين:

أولاً: النظر إلى ما قبل النص المفسر: سواء كان أكثر من آية، أو أقل من جملة.

ثانياً: النظر إلى ما بعد النص المفسر: سواء كان أكثر من آية، أو أقل من جملة.

وهكذا حين نراعي تتابع الكلام وتساققه وتقاوده في التوصل إلى المعنى المراد منه، نكون قد طبقنا دلالة السياق في الكلام.

فعلى ما سبق يمكننا أن نعرف دلالة السياق في التفسير عموماً بأنه: تتابع الكلام وتساققه وتقاوده وفهم النص القرآني بمراعاة ما قبله وما بعده وبيان اللفظ أو الجملة في الآية، بما لا يخرجها عن السابق واللاحق، إلا بدليل صحيح يجب التسليم له؛ كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني: أنواع دلالة السياق

فتنقسم دلالة السياق إلى أربعة أنواع، وتفصيلها والتمثيل عليها يأتي فيما يلي:

النوع الأول: دلالة السياق في الآية.

النوع الثاني: دلالة السياق في مقطع من الآيات.

النوع الثالث: دلالة السياق في مجموع السورة.

النوع الرابع: دلالة السياق في مجموع القرآن.

المطلب الأول: دلالة السياق في الآية

إذا نظرنا في بعض كلمات الآية القرآنية وجدنا أن المعجم العربي يعطي لها معان عامة ومتعددة، ويأتي إليها الاحتمال بين هذه المعاني بينما إذا نظرنا فيها بضوء سياقها فإنها حينئذ تتحدد المعالم لهذه الكلمات، ويتضح المراد منها، ويقطع بإرادة أحد معانيها المحتملة في هذا الموضوع، وينتفي تعدد المعاني واشتراكها وتعميمها؛ وفي هذا النوع من أنواع دلالة السياق يكون النظر في سياق الآية سابقا ولحاقا، لا فيما سبقها أو لحقها من آيات لتحديد المعنى المراد لأحد المعاني من خلال معانيها المتعددة والمحملة.

ومن أمثلة هذا النوع قول الإمام النسفي- رحمه الله - في تفسير كلمة الكتاب في قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) [البقرة: ٢]: " أي ذلك الكتاب الذي وعد به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام " 247 فهو القرآن الكريم.

فنجد أن الإمام النسفي رحمه الله قصر دلالة كلمة الكتاب على الكتاب الذي وعد به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، وهو القرآن الكريم رغم أن معناها اللغوي يشتمل على كل ما اسمه الكتاب. فهذا المعنى الذي ذهب إليه الإمام النسفي رحمه الله لبيان معنى الكتاب يتوافق مع سياق الآية من حيث أن سياق الآية في إظهار شأن القرآن وعدم الشك فيه، وكون القرآن هو الكتاب الأكمل الذي سبق غيره في كماله وعلو منزلته.

المطلب الثاني: دلالة السياق في مقطع من الآيات

ومن أسلوب القرآن الكريم في البيان أن سوره تتضمن نصوصا ومقاطع من الآيات متحدة في المعاني، مترابطة في المباني، لها أغراض محددة، وهذه الأغراض متناسقة ومتناسبة، تتلاحم فيبنى بعضها على بعض حتى تؤدي بمجموعها غرضا أو أغراضا خاصة لمجموع السورة، تسمى وحدة السورة أو أغراضها أو مقاصدها.

كما قال محمد عبد الله دراز 248- رحمه الله - في كتابه *النبأ العظيم* عند بيان خصائص القرآن البيانية: "إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان لا. بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما كما يلتقي العظامان عند المفصل. " 249

ومن أمثلة لهذا النوع من أنواع دلالة السياق:

ما قاله الإمام النسفي عند تفسير قوله تعالى: (صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) [البقرة: ١٨]: أي "لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها لتنوع الرجوع إلى الشيء وعنه. " 250

247 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٨١.

248 هو فقيه متأدب مصري أزهرى، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، له كتب، منها دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام، المتوفى، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م. الزركلي، الأعلام، ٢٤٦٦.

249 محمد بن عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن الكريم، (دار القلم، ٢٠٠٥/ ١٤٢٦)، ١٨٨.

250 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٥٦١.

ففرى أن الإمام النسفي قيد مطلق الجملة لَا يَرْجِعُونَ فِي الْآيَةِ بقوله: لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها؛ وهي واردة في الآية مطلقاً من أي قيود.

فاستند الإمام في هذا التفسير إلى دلالة السياق التي تستمد من مطلع الآيات التي وردت في هذه السورة في المنافقين الذين يشترون الضلالة بالهدى.

وقال الإمام النسفي عند تفسير قوله تعالى: (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) [البقرة: ٢٣٠]: "مرة ثالثة بعد المرتين" وهو يعتبر ارتباط هذه الآية مع الآية السابقة وهي (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ) [البقرة: ٢٢٩]؛ وقال أيضاً: " {فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ} من بعد التطليقة الثالثة " وهو يجمع بين المرات الثلاثة في الطلاق. " 251

وقال عند تفسير قوله تعالى: (إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُ) [البقرة: ٢٣١]: " {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ} أي آخر عدتهن وشارفن منتهاهما والأجل يقع على المدة كلها وعلى آخرها يقال لعمر الإنسان أجل وللموت الذي ينتهي. " 252

وقال عند تفسير قوله تعالى: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ) [البقرة: ٢٣٢]: " {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ} أي انقضت عدتهن. فدل سياق الكلامين على اقتران البلوغين لأن النكاح يعقبه هنا وإذا يكون بعد العدة الأولى الرجعة وإذا يكون في العدة. " 253

ومن نظر في هذه الأقوال التي فسّر الإمام النسفي بها هذه الآيات يجد أنه اعتمد على الدلالة السياقية التي تقع في مقطع من الآيات حيث أثبت الترابط بين أربع آيات متتابعة عند تفسيرها كما تقدم في الأمثلة.

المطلب الثالث: دلالة سياقية في مجموع السورة

ترتبط كل سورة في القرآن الكريم على حسب أسلوبه البياني بمحور عام وغرض رئيس، يستمد من سياقها العام، وتكملة المقاطع ذات الأغراض الخاصة في السورة؛ و "ذلك هو تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها " 254.

251 النسفي، المدارك، ١٩١١.

252 النسفي، المدارك، ١٩٢١.

253 النسفي، المدارك، ١٩٢١-١٩٣.

254 عبد الله دراز، النبأ العظيم، ١٧٦.

فيثبت هذا التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف. كما قال الله تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء: ٨٢].

وليتضح هذا النوع من دلالة السياق رأيت من المناسب أن أنقل هنا فقرات من كلام عبد الله دراز
رحمه الله في ثبوت الترابط العامي بين أجزاء السورة من حيث تدور حول محور عام وغرض رئيس
تشير إليه دلالتها السياقية العامة.

فقال: "فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه؟ وعلى أي عين صنع
نظامه؟ حتى كان كما وصفه الله (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) [الزمر: ٢٨] اعمد إلى سورة من تلك السور
التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة
ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها
وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطئت أولها لآخرها؟

وأنا لك زعم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت
في نجم واحد أم في نجوم شتى. وسوف تحسب أن السبع الطول من سورة القرآن قد نزلت كل واحدة منها
دفعاً، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجومًا. أو لتقولن: إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت
عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع؛ كمثل ببيان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورته
إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضاً فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم،
وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة.

أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً
من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي -لو تدبرت- بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول،
وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل
بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في ببيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من
تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى
بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين أحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحاق. كل ذلك بغير
تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل
غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً. " 255

ومن الأمثلة لهذا النوع من أنواع دلالة السياق ما يلي:

255 عبد الله دراز، النبأ العظيم، ١٨٧-١٨٨.

أن سورة البقرة بدلالة سياقها العام كانت واردة لغرض عظيم، وبالتأمل الثاقب في السورة نجد أن غرضها الأساسي وسياقها العام هو تقرير أصول العلم وقواعد الدين، إعداداً للأمة وتكميلاً لها لحمل أمانة الدين وتبليغها.

فالسورة تهدف إلى بناء القاعدة الأساسية للدولة الإسلامية وأصول نظامها، والذي يمثل أصول أحكام الشريعة، وذلك كله جاري في غرض مهم وهو تربية المؤمنين وتهيتئتهم لتلقي هذه الأحكام وتطبيقها ونشرها في الأرض.

وقال سيد قطب صاحب الظلال²⁵⁶ في مقدمة تفسير هذه السورة: " ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً؛ ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة.

هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها- صلى الله عليه وسلم- وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم- عليه السلام- صاحب الحنفية الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم.

"257

وبتأمل ثاقب في نزول السورة، واستعراض لمضمونها نجد أن هذه الدلالة السياقية ظاهرة فيها بجلاء؛ ويتأكد ذلك من عدة وجوه:

²⁵⁶ سيد قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط. تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي: الرسالة والثقافة، وعين مدرسا للعربية، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف. ثم مراقباً فنياً للوزارة. وأوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم في أميركا ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تنمى والفكرة الإسلامية. وبنى على هذا استقالته في العام الثاني للثورة. وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم -رحمه الله- سنة ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م. الزركلي، الأعلام، ١٤٧/٣.

²⁵⁷ سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، ٢٨١.

أولاً: نزول السورة، فالسورة هي أول ما نزل في المدينة، واستمر نزولها حتى وفاة النبي؛ إذ أنها آخر الآيات نوزلاً منها، فهي إذاً قد استغرقت المرحلة المدنية كلها، وهذا له دلالة ظاهرة في غرض السورة، وهي أنها تهدف إلى بناء القاعدة الأساسية للدولة المسلمة وأصول نظامها وتهيئة المؤمنين وتربيتهم لتلقيها بالقبول.

ثانياً: افتتاح السورة بتعظيم شأن الكتاب وبيان مقصده الأعظم، وهو الذي اشتمل على الشريعة وهذا النظام الأساسي للدولة المسلمة، وفي هذا الافتتاح ترسيخ لمقام القرآن في نفوس المؤمنين وتعظيم له، لتتلقاه الأمة بالقبول والتعظيم. ولا يمكن للأمة أن تتلقى ما في القرآن على الوجه الأكمل إلا إذا عظمت هذا القرآن وعرفت مقامه وقدره.

ثالثاً: أنه عرض في السورة لموقف بني إسرائيل مع أنبيهم، وسوء تلقيهم لأوامر الله تعالى وتكليفه لهم بأمانة الدين، كل ذلك من أجل تحذير الأمة المحمدية من سلوك سبيلهم، وإطلاعها على مواضع الزلل والخلل التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم ليتجاوزوها، وذلك جارٍ في سياق إعداد المؤمنين وتهيئتهم، وهم من تمام رعاية الله تعالى لهذه الأمة وكمال رحمته تعالى بها.

رابعاً: بيان ما خص الله تعالى به هذه الأمة المحمدية من وراثتها لملة إبراهيم، وقبلته، وتشريفها بالنبي الكريم الذي أرسله الله رحمة للأمة يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وكل ذلك دليل على تفضيل الأمة واستقلالها، وتهيئتها لتتلقى هذا التشريف بالاستجابة والقبول وتحمل هذه الأمانة بصدق.

خامساً: كون السورة تعتبر سنام القرآن لما اشتملت عليه من أصول العلم وقواعد الدين كما تقرر، وهذا دال على أنها قاعدة أساس للشريعة، وهذا يؤكد أنها تشتمل على بناء النظام الأساسي للدولة المسلمة، وتهدف إلى تربية الأمة وتهيئتها لحمل أمانة الدين على الوجه الأكمل.

وقال الألوسي -رحمه الله- في بيان ما جمعته سورة البقرة: "والسورة الكريمة لكونها سنام القرآن ذكر فيها كليات الأحكام الدينية من الصيام والحج والصلاة والجهاد على نمط عجيب." 258

258 شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥)، ٥٥٤/١.

سادساً: كون السورة تميزت بإظهار أعظم خصائص كمال الشريعة وهي اشتمالها على الرحمة والتيسير والتخفيف، مع مراعاة المصالح وحفظ الحقوق كما تقرر، وهذا مؤكد على أنها تهدف إلى تربية الأمة وتهيتها لتلقي هذه الشريعة والاستجابة لأوامر الله تعالى فيها.

سابعاً: عناية السورة بإصلاح الأحوال الاجتماعية وإزالة الخلل الواقع فيها، تهيئة للأمة لحمل أمانة الدين وتبليغها، ولذلك جاء الحديث عن الجهاد بعد نهاية آيات الطلاق، مفتتحاً بالأمر بالمحافظة على الصلاة في قوله تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا (البقرة: ٢٣٨-٢٣٩).

ثامناً: كون السورة اشتملت على الحض والتأكيد على أمر الجهاد والإنفاق، وهذان الأصلان من أعظم ما تقوم به الدولة ويتحقق بهما التمكن والاستقلال. وقد جاء الحض عليهما متفرقاً في السورة وبأساليب متعددة. عرض من خلاله لقصة بني إسرائيل في طلبهم للقتال ثم تخليهم عنه، تحذير للأمة من مشابهتهم. وترغيب لها على الصبر والتزام أمر نبيها.

تاسعاً: ختم السورة بالشهادة والإشادة بالمؤمنين على إيمانهم بما أنزل إليهم من الكتاب، واستجابتهم التامة وقبولهم لما تضمنه الكتاب من التشريع والتكليف. بقوله تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) [البقرة: ٢٨٥] ثم ختمت هذه الخاتمة بدعاء المؤمنين بما يدل على طلب العفو والتخفيف والرحمة، وكان آخر دعاء المؤمنين فيها قولهم: (وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٨٦]، إشارة إلى كمال استجابتهم واستعدادهم لحمل الأمانة وتبليغها. وهذا محقق للسياق السورة العام وكونها في بناء التشريع الأساسي للدولة المسلمة، وتهيئة الأمة لتلقي هذا التشريع وتبليغه.

المطلب الرابع: دلالة السياق في مجموع القرآن

المراد بهذا النوع من السياق القرآني، مقاصد القرآن الأساسية، فالقرآن مبني على أغراض ومقاصد أساسية، وهذه الأغراض والمقاصد معتبرة في تفسير كلام الله تعالى كله، بل يجب الاعتماد عليها في كل سورة وآية منه حسب ما يقتضي المقام فيها.

وقد أجمل ابن عاشور مقاصد القرآن كلها في ثمانية مقاصد: الأول: إصلاح الاعتقاد، الثاني: تهذيب الأخلاق، الثالث: بيان التشريع، الرابع: سياسة الأمة وصلاحها وحفظ نظامها، الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، السادس: التعليم بما يناسب حاله عصر المخاطبين، وما

يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول. 259

ومن الأمثلة اعتبار مقاصد القرآن ما جاء في السنة من اعتبار سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله، واعتبار سورة البقرة سنام القرآن، وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، وهذا إنما يكون بالنظر لمعاني هذه السور بالنسبة لمعاني القرآن كله. وقد ذكر العلماء مقاصد القرآن في فضائل سورة الفاتحة:

فقال الإمام النسفي عند ذكره أسماء للسورة: "تسمى أم القرآن للحديث قال عليه السلام: " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن... وسورة الحمد والاساس فإنها أساس القرآن؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالأساس. " 260

وقال الإمام السيوطي رحمه الله في خواص سورة الفاتحة: " وقال ابن التين في حديث البخاري: "لأعلمنك سورة هي أعظم السور. " فمعناه أن ثوابها أعظم من غيرها وقال غيره: إنما كانت أعظم السور لأنها جمعت جميع مقاصد القرآن ولذلك سميت أم القرآن.

وقال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن ثم أودع علوم القرآن الفاتحة فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة أخرجه البيهقي.

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري باشتمالها على الثناء على الله تعالى بما هو أهله وعلى التعبد بالأمر والنهي وعلى الوعد والوعيد وآيات القرآن لا تخلو عن أحد هذه الأمور.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى؛ فقله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يدل على الإلهيات، وقوله: (مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ) يدل على المعاد وقوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) يدل على نفي الجبر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله وعلى النبوات؛ فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة وهذه السورة مشتملة عليها سميت أم القرآن. " 261

وقال البيضاوي: تسمى أم القرآن، لأنها مفتوحة ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه، ولذلك تسمى أساسا. أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان، وعده ووعيده.

259 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٩١١.

260 أبو البركات النسفي، تفسير النسفي، ٢٥١١.

261 السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١٣٩١-١٤٠٠.

أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء. "262

"وقال الطيبي: هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين:

أحدها: علم الأصول ومعاقده معرفة الله تعالى وصفاته وإليها الإشارة بقوله في سورة الفاتحة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [الفاتحة: ٢-٣] ومعرفة النبوة وهي المرادة بقوله: (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) ومعرفة المعاد وهو المومي إليه قوله: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). [الفاتحة: ٤]

وثانيها: علم الفروع وأسه العبادات وهو المراد بقوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ). [الفاتحة: ٥]

وثالثها: علم ما يحصل به الكمال وهو علم الأخلاق وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية والالتجاء إلى جناب الفردانية والسلوك لطريقه والاستقامة فيها وإليه الإشارة بقوله: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ). [الفاتحة: ٥-٦]

ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة والقرون الخالية السعداء منهم والأشقياء وما يتصل بها من وعد محسنهم ووعد مسيئهم وهو المراد بقوله: (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ). [الفاتحة: ٧]

وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة؛ فإنها بُنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً؛ فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله؛ ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق. "263

وقال الإمام الغزالي-رحمه الله- 264 في حصر مقاصد القرآن ونفائسه: مقاصد القرآن ستة فمنها ثلاثة هي السوابق والأصول المهمة، ومنها ثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتممة.

262 ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨)، ٢٥١.

263 جلال الدين السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، (القاهرة: دار الفضيحة، ٢٠٠٢، ١٤٢٢)، ٥٠.

264 الشيخ، الإمام، البحر، حجة الإسلام أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط، تفقه ببلده أولاً، ثم تحول إلى نيسابور، فلزم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام والجدل، وشرع في التصنيف، ثم سار أبو حامد إلى المخيم السلطاني، فأقبل عليه نظام الملك الوزير، وسر بوجوده، وناظر الكبار بحضرته، فأنبهر له، وشاع أمره، فولاه النظام تدريس نظامية بغداد، فقدمها بعد الثمانين وأربع مائة، وسنه نحو الثلاثين، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلان ذهنه في مضائق الكلام، ومزال الأقدام، والله سر في خلقه. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، (مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥، ١٩٨٥)، ٣٢٣/١٩.

أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه، كما أشير إليه بصدرها، وتعريف الصراط المستقيم، وقد صرح به فيها، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى، وهو الآخرة، كما أشير إليه بقوله تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ).

وأما الثلاثة المغنية المتممة فهي: تعريف أحوال المطيعين، كما أشار إليه بقوله تعالى: (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) وحكاية أقوال الجاحدين، وقد أشير إليها بقوله تعالى: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وتعريف منازل الطريق، كما أشير إليه بقوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).²⁶⁵

وقال بن عاشور في بيان ما تضمنته سورة الفاتحة: "القصود من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية، وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الأمر وأنه الله الواجب وجوده خالق الخلق لزم تحقيق معنى الصفات ولما توقفت تمام الامتنال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد. والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع فإن قوله: الحمد لله إلى قوله: يوم الدين حمد وثناء، وقوله: إياك نعبد إلى قوله: المستقيم من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: صراط الذين إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر المغضوب عليهم والضالين يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن." ²⁶⁶

المطلب الخامس: قواعد دلالة السياق في التفسير

لما كان إعمال السياق أصلا عظيماً في تفسير كلام الله تعالى وبيان معناه، فوضع العلماء المفسرين المحققون القواعد المتعلقة بهذا الأصل ليكون منهجاً ثابتاً يجب مراعاته عند تفسير كلام الله تعالى.

وسأعرضها ملخصة مما ذكره العلماء والمفسرون ومن أهمها ما يلي:

أولاً: أن كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله.

أي كل تفسير خرج بمعاني كتاب الله عما تدل عليه ألفاظه وسياقه، ولم يدل اللفظ على هذا المعنى بأي نوع من أنواع الدلالة: مطابقة، أو تضمناً، أو التزاماً، أو مفهوماً موافقاً، أو مفهوماً مخالفاً، فهو مردود على قائله؛ لأنه إذا كان بهذه الصفة كان ضرباً من التخرص، والقرمطة، والتلاعب بكتاب الله - تعالى -، لا تفره لغة، ولا يرضاه دين، ولا عقل، وليس من تفسير كلام الله في شيء.

²⁶⁵ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، جواهر القرآن، تحقيق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القبانى، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٦ / ١٩٨٦)، ٢٣.

²⁶⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣٣١.

فبالألفاظ يكون التخاطب والإفصاح عن المراد، والألفاظ قوالب المعاني، فإلغاء دلالاتها إبطال للغة التخاطب وفائدته.

ومن الأمثلة لهذه القاعدة أن الله تعالى هدد وتوعد الذين يلحدون في آياته تعالى بأنه عالم محيط بهم، وأنه سيجزيهم على ذلك العقوبة والنكال، فقال: إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة فصلت: ٤٠ والإلحاد في آيات الله: أن يوضع الكلام على غير موضعه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن هذا القرآن كلام الله عز وجل فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم.

فتفسير الآية بغير ما تدل عليه ألفاظها وضع للكلام في غير موضعه، وتحريف له عن مواضعه؛ فهو من الإلحاد في آيات الله تعالى.

وقال السيوطي رحمه الله بعد أن ذكر تفسير ابن عباس السابق: ففيه الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهر اللفظ، كما يفعله الباطنية، والاتحادية، والملاحدة، وغلاة المتصوف. "267

ثانياً: أن القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه.

أي إذا تنازع العلماء في تفسير آية من كتاب الله، وكان في السياق قرينة - إما لفظة، أو جملة، أو غيرها - تؤيد أحد الأقوال المقولة في الآية، فالقول الذي تؤيده القرينة أولى الأقوال بتفسير الآية. فإن تنازع المثال قرينتان، كل قرينة تؤيد قولاً، رجح القول الذي تؤيده أرجح القرينتين وأقواهما.

والقرينة هي: ما يوضح المراد لا بالوضع، بل تؤخذ من لا حق الكلام الدال على خصوص المقصود، أو سابقه.

ومن الأمثلة لهذه القاعدة قول الله تعالى عن شاهد يوسف: (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) [يوسف: ٢٦-٢٧-٢٨].

فأقر الله حكم شاهد يوسف عليه السلام حين حكم بحكمه اعتماداً على قرائن الحال وهي "قد القميص" فجعل قدّه من قبل قرينة على أنه كان مقبلاً عليها فيكون هو المراد لها وتكون هي صادقة في

²⁶⁷ حسين بن علي بن حسين الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، رسالة ماجستير - كلية أصول الدين، جامعة الإمام، الإشراف: الشيخ مناع القطان، (السعودية: دار القاسم، ١٤٢٩ هـ)، ٢٠٠٨، ١٢-٧-٨-٩-١٠.

دعواها. وإن كان القدّ من دبر فهذه قرينة تدل على أنه كان مولياً مدبراً عنها فتكون هي المرادة، ويكون هو صادقاً في دعواه، فاستحق يوسف البراءة عند سيده بهذا الحكم المبني على القرائن. "268

خامساً: أنه لا يجوز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة، فأما الدعاوى، فلا تتعذر على أحد.

وقد قرر هذه القاعدة ابن جرير-رحمه الله- واعتمد عليها في تفسيره حيث قال: "وأما الذي قال: عني بقوله: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) [النساء: ١٥٩] ليؤمننَّ بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابي فمما لا وجه له مفهوم، لأنه مع فساده من الوجه الذي دللنا على فساد قول من قال: عني به: ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي" يزيده فساداً أنه لم يجر لمحمد عليه السلام في الآيات التي قبل ذلك ذكر، فيجوز صرف الهاء التي في قوله: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ)، إلى أنها من ذكره. وإنما قوله: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ)، في سياق ذكر عيسى وأمه واليهود. فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة. فأما الدعاوى، فلا تتعذر على أحد. "269

سادساً: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. 270

هذه القاعدة الأصولية تعتبر قاعدة في السياق من جهة أنه لا عبرة بخصوص السياق الذي نزلت فيه الآية، وإنما العبرة بسياقها العام وهو ما دل عليه غرضها وحكمها العام، ولهذا جاءت ألفاظ القرآن عامة.

ومن الأمثلة لهذه القاعدة أن قوله تعالى بقوله تعالى: (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) [الليل: ١٧-١٨] فإنها نازلة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ 271 ومع كونها فيه ثناء عليه إلا أن الصيغة العامة التي وردت فيها تفيد أن هذا الحكم ليس مقصوراً عليه.

ولهذا فإنه كثيراً ما تكون الآيات نازلة بحال معين أو حدث خاص أو شخص مقصود، إلا أنها تأتي بصيغة العموم فتعم غيره من جهة الوصف؛ لأن القرآن عام في حكمه، إلا أنه يجب اعتبار ما نزلت فيه الآية في بيان المعنى ابتداءً؛ لأنه المحدد للوصف وللغرض من الآية.

268 حسين بن علي بن حسين الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، ٢٦٩/١.

269 أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، (مكة المكرمة: دار التربية والتراث، دون تاريخ نشر)، ٣٨٩/٩.

270 أبو الحسن علاء الدين بن محمد بن عباس البعلبي، القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية، تحقيق: عبد الكريم الفضيلي، (المكتبة العصرية، ١٤٢٠/١٩٩٩)، ٣١٨.

271 أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ٤٥٦.

سابعاً: أنه يجب حمل كلام الله على المعاني والأوجه اللائقة بالسياق والموافقة لأسلوب القرآن.

هذه القاعدة توجب حمل آيات التنزيل على الأوجه الإعرابية اللائقة بسياق الآية ومعناها، والموافقة لأدلة الشرع، دون الأوجه الجافية عنها، وإن كان لها وجه صحيح في العربية، فليس كل ما صح القول به في تركيب عربي صح حمل آيات التنزيل عليه، فللقرآن عرف خاص يجب أن يحمل عليه ولا يتعداه، ولا يتجاوز ما صح من معانيه بكل احتمال نحوي؛ وذلك لأن الإعراب يبين المعنى، والمعنى هو المقصود في النص القرآني دون الإعراب وقواعده. ²⁷²

وأقوال العلماء في اعتمادها والترجيح بها كثيرة، فمن هؤلاء الأئمة الإمام الطبري؛ فكثيراً ما ينبه في تفسيره إلى هذه القاعدة بقوله: "وهذا القول على مذهب العربية أصح، والأول إلى مذهب أهل التأويل أقرب." ²⁷³

المبحث الثالث: أهمية دلالة السياق ومكانتها في التفسير

المطلب الأول: دلالة السياق عند المفسرين

دلالة السياق تعتبر عند المفسرين من تفسير القرآن بالقرآن، وهي من منهج النبي في تفسير القرآن، وتبعه المفسرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء والمفسرين؛ ولها -كما تقدمت- قواعد أسسوها واستنبطوها من كتب التفسير، ليسهل تطبيقها ولمعرفة الراجح عند التعارض بين أقوالهم، وهي مرجحة عند عدم وجود غيرها وكذلك المفسرون لا يكتفون بدراسة دلالة الألفاظ في النص القرآني بمعزل عن سياقها، بل يبحثون عن المعنى الحقيقي للنص من خلال دلالة سياقه.

ويظهر ذلك من خلال عدة أمور فيما يلي:

أن النبي أول من اعتبر دلالة السياق في بيان المراد من النص القرآني حيث قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) [المؤمنون: ٦٩]: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك يسهرون

²⁷² حسين بن علي بن حسين الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، ٢٠٢٢/٢.

²⁷³ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٥٧٨/١٨.

في الخيرات. "274 فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أشار الى لحاق الآية ليبين أنها في المؤمنين الذين يصومون ويصلون ويتصدقون؛ لا العصاة الذين يشربون الخمر ويسرقون.

وأن الصحابة -رضوان الله عليهم -استعملوا دلالة السياق في فهم بعض النصوص القرآنية ومن الأمثلة على ذلك ما يروى عن عكرمة أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب تزعم أن قوما يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: (وما هم بخارجين منها) فقال: "ويحك !، اقرأ ما فوقها هذا للكفار. 275 فأرشد ابن عباس رضي الله عنه النافع بن الأزرق الى قراءة سباق الآية 276 ليبين أن الآية خاصة للكفار.

وأن رجلا سأل عن علي -رضي الله عنه -قائلا: يا أمير المؤمنين، رأيت قول الله تعالى: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) [النساء: ١٤١] وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون ؟ قال له علي رضي الله عنه: ادنه، ادنه ! ثم قال: (فَأَلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) يوم القيامة. 277 فنجد أن عليا -رضي الله عنه -صَوَّبَ للسائل فهمه الخطيئ للآية الكريمة حيث بين له أن الإطلاق الوارد في قوله تعالى: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) هذا الإطلاق مقيد بيوم القيامة، وكما نرى أنه قد استند على ذلك بسياق الآية.

وأن التابعين رضوان الله عليهم اعتمدوا على دلالة السياق في تفسيرهم لبعض الآيات؛ ومن الأمثلة على ذلك أن السدي رحمه الله من التابعين عند تفسيره لقوله تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) [البقرة: ٨٥] قال: أخذ الله عليهم أربعة عهود ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء. 278 فقله هذا يشيرنا الى استدلاله من سياق الآية حيث أن سباقها 279 يدل على معناها الذي بينه السدي رحمه الله عند تفسيرها.

274 أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦)، رقم: ٣١٧٥، ٢٣٦١٥.

275 الزمخشري، الكشاف، ٦٣٠١١.

276 وهو يقصد قوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) [المائدة: ٣٧].

277 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٣٢٧١٩.

278 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٠٦١٩.

279 وهي قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ؛ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) [البقرة: ٨٤-٨٥].

وأن العلماء من المفسرين قد اتفقوا على ضرورة النظر في سياق الآيات وعدم الخروج عليه حتى يكون التفسير صحيحاً، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها... تبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله." 280

وقال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره: وإنما قوله: ليؤمنن به، في سياق ذكر عيسى وأمه واليهود. فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة. فأما الدعاوى، فلا تتعذر على أحد. 281

وقال الإمام النسفي عند تفسير قوله تعالى: (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ) [البقرة: ٢٣٢] "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ" أي انقضت عدتهن فدل سياق الكلامين على اقتران البلوغين لأن النكاح يعقبه هنا وإذا يكون بعد العدة الأولى الرجعة وإذا يكون في العدة. 282

وقال الإمام الزركشي رحمه الله في كتابه البرهان في علوم القرآن: "واعلم أن القرآن قسمان، أحدهما ورد تفسيره بالنقل عن معتبر تفسيره وقسم لم يرد والأول ثلاثة أنواع إما أن يرد التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة أو عن رؤوس التابعين... والثاني ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين -وهو قليل -وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات فيذكر قيماً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق." 283

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله - في كتابه الموافقات: "فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرّق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاختصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض." 284

وقال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله - في مجموع الفتاوى: "ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والدلالات فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة

280 الشافعي، الرسالة، ٥٢.

281 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٣٨٩/٩.

282 أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٩٣/١.

283 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١٧٢/٢.

284 أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (دار ابن عفان، ١٩٩٧/١٤١٧)، ٢٦٦/٤.

والاستدلال بهما مطلقا ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطرد الدليل ونقضه فهو نافع في كل علم خبري أو إنشائي وفي كل استدلال أو معارضة: من الكتاب والسنة وفي سائر أدلة الخلق. "285

فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين. 286

وقال السعدي- رحمه الله- في مقدمة تفسيره: "فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه. "287

واتضح مما سبق من اقوال العلماء المفسرين أن دلالة السياق في نصوص القرآن الكريم هي أصل من أصول التفسير، لا غنى للمفسر عنه، فيجب أن يلتزمه كل من يريد أن يكون صاحب الفهم الصحيح والمعرفة السليمة بكلام الله، فضلا عن الذين يتقدمون الى تفسيره؛ لما له من أثر ظاهر في فهم كلام الله تعالى، وبيان المعنى الصحيح في الآية، وبإهماله يضع المفسر قدمه على عتبات الزلل، وتوسم آراؤه بالعلل من حيث قد يبين آخر كلامه تعالى أولاً، وآخره أولاً، يرتبط بعضه ببعض في فهم معناه المراد.

المطلب الثاني: أهمية دلالة السياق ومكانتها في التفسير

إن استخدام دلالة السياق في تفسير آيات القرآن الكريم هو أصل من أهم أصول علم التفسير، وإهماله يضع قدم المفسر على عتبات الزلل، ويجعل آراءه عرضة للعيوب.

وتظهر أهمية إعمال دلالة السياق في أمور آتية:

أولاً: أن إعمال دلالة السياق في التفسير من تفسير القرآن بالقرآن.

أن السياق مرتبط مباشرة بالقرآن نفسه من حيث إنه تفسير للقرآن بالقرآن، بل هو أعلى درجات تفسير القرآن بالقرآن إذا كان صريحاً؛ لأنه تفسير الآية بما تضمنته من الدلائل والقرائن وبحسب مناسبتها

²⁸⁵شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (السعودية: مجمع الملك فهد، ٢٠٠٤م)، ١٩-١٨/٦.

²⁸⁶المصد السابق، ٩٤/١٥.

²⁸⁷عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م)، ٢٩.

لما قبلها وبعدها وهو السياق، "بان يكون في الكلام لبس وخفاء فيأتي بما يزيله ويفسره، إما بعده مباشرة أو في موضع آخر وارد مورد البيان له، ومن أمثلته تفسير الهلوع في قوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً) [المعارج: ١٩] بقوله تعالى بعده: (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) [المعارج: ٢٠-٢١] وتفسير الطارق في قوله: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) بقوله بعده: (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) [الطارق: ٢-٣]. وتفسير أولياء الله في قوله: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) بقوله بعده: (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يونس: ٦٢ - ٦٣] فهذا من أبلغ أنواع التفسير ولا قول لأحد معه، ومثله لا يختلف فيه. "288

وذلك يؤكد أهمية إعمال دلالة السياق في تفسير آيات القرآن الكريم، واعتبارها مكانتها أصلاً من أصول التفسير.

ثانياً: أنه أصل معتبر ظاهر في تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

فمن أعظم ما يدل على أهميته أنه وارد في تفسير النبي والسلف الصالح من بعده. بل قد تجلّى ذلك في إنكارهم على من فهم الآية على غير السياق والغرض الذي وردت لأجله.

فمن أمثلة اعتباره في تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ما يلي:

أن النبي صلى الله عليه وسلم أول من اعتبر دلالة السياق في بيان المراد من نص القرآن؛ حيث قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ) [المؤمنون: ٦٠]: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك يسمعون في الخيرات. "289 فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم معنى الآية بسياقها وذلك لاستدلاله بلحاق الآية.

ومن أمثلة اعتباره في تفسير السلف الصالح من الصحابة والتابعين ما يلي:

أن رجلاً سأل علي -رضي الله عنه- قائلاً: يا أمير المؤمنين، أرايت قول الله تعالى: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) [النساء: ١٤١] وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي رضي الله عنه: ادنه، ادنه! ثم قال: (فَأَلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً) يوم

288 حسين بن علي بن حسين الحربي، قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، ٢٨٨/١-٢٨٩.

289 أبو عيسى محمد بن عيسى، الترمذي، سنن الترمذي، رقم: ٣١٧٥، ٢٣٦/٥.

القيامة.²⁹⁰ فنجد أن علياً رضي الله عنه صوب للسائل الذي عزل هذا الجزء من الآية عن سياقه، فوقع في الخطأ، فاستدل عليّ بسياق الآية لإزالة الاستشكال، فوضح معنى الآية في ضوء سياقها، إذ الحديث عن يوم القيامة.

وأن السدي -رحمه الله- من التابعين عند تفسيره لقوله تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) [البقرة: ٨٥] قال: أخذ الله عليهم أربعة عهود ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء.²⁹¹ فقله هذا يشيرنا إلى استدلاله من سياق الآية حيث أن سباقها²⁹² يدل على معناها الذي بينه السدي رحمه الله عند تفسيرها.

ثالثاً: أنه أصل معتبر في التفسير عند العلماء:

يعتبر السياق عند العلماء والمفسرين أساساً في فهم الكلام، وأصلاً يحتكم إليه، وبخاصة في كلام الله تعالى الذي بني على أغراض معتبرة، ونظم متحد، وقد تضافرت وتواترت أقوال العلماء في تأكيد ذلك وتقديره وقد أوردتها بالتفصيل فيما تقدم عند بيان الدلالة السياقية عند المفسرين.

رابعاً: أن منزلته من بين قرائن الترجيح.

ولبيان منزلة دلالة السياق من بين قرائن الترجيح لابد من اعتبار أمور:

أولاً: "أنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى"؛ كما اعتبرها ذلك الزركشي،²⁹³ وأنها معتبرة في كل موضع بحسب سياقه؛ كما قرره شيخ الإسلام بن تيمية وقال: فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية.²⁹⁴

²⁹⁰ أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٣٢٧/٩.

²⁹¹ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١٠٦/٩.

²⁹² وهي قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ؛ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) [البقرة: ٨٤-٨٥].

²⁹³ أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، (دار الكتب، ١٤١٤/١٩٩٤)، ٥٤/٨.

²⁹⁴ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٤/٦.

ثانياً: أن دلالة السياق أصل معتبر نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً؛ كما قرر ذلك شيخ الإسلام بن تيمية وقال: "بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرائن والدلالات فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقاً".²⁹⁵

فيتقرر من ذلك أن النظر في السياق ثابت في كل آية من كتاب الله تعالى، وهو أصل في بيان معناها؛ وأنه يأتي في المرتبة الأولى من حيث الاعتبار في معنى الآية، فيكون القول الذي يتوافق مع سياق الآية هو القول الصحيح المعتمد؛ لأنه لا يتعارض مع أي قرينة من القرائن، ولا يجوز الخروج بالآية عما دل عليه لفظها وسياقها.

ثالثاً: أن معرفة السياق مبنية على الاجتهاد وغلبة الظن، وعليه فيكون تحديد السياق أمراً ظنياً لا قطعياً، ولهذا تجد الاختلاف في تحديد السياق في الآية الواحدة.

ومن هذا الوجه اعتبرت دلالة السياق قرينة ظنية يمكن ترجيح غيرها عليها حال التعارض، أما حال ثبوت السياق فهو العمدة في التفسير.

المطلب الثالث: أبرز المفسرين الذين اعتنوا بدلالة السياق

اعتنى المفسرون باستدلال دلالة سياق القرآن عناية ظاهرة، ورعوا حق رعايتها، وأنزلوها منزلتها العالية في التفسير ويحسن في هذا المطلب أن ألقى الضوء على عنايتهم بها ومناهجهم في تناولها إجمالاً.

أولاً: الإمام الطبري.

وهو أكثر المفسرين في تناول دلالة السياق تأصيلاً وتطبيقاً، وقد اعتمد عليها في التفسير.

فلم يغفل الإمام الطبري عن هذا الترابط الدقيق بين معاني الكتاب، سواء كان ذلك في آيات الأحكام، أو آيات القصص أو غيرها من نصوص هذا الكتاب، فهو يأخذ المعنى في أول الآية ثم يسير معه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، ثم جملة جملة، غير تارك لشيء منه، أو متجاوز عن معنى يدل عليه سياقها.²⁹⁶

ثانياً: العلامة الزمخشري.

²⁹⁵ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٨١٦.

²⁹⁶ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٥٣٧٤.

والزمخشري من أبرز المفسرين الذين اعتمدوا على دلالة السياق في تفسيرهم، ويدل على ذلك تمكنه من اللغة والبلاغة؛ ويكون غالب استعماله لدلالة السياق من جهة العناية بالروابط بين الآيات، ووجوه العلاقة والتراكيب والإعراب.

وقد صرح الإمام الزركشي بمنهجه وعنايته بدلالة السياق فقال: "ولهذا ترى صاحب "الكشاف" يجعل الذي سبق له الكلام معتمداً حتى كأنَّ غيره مطروح." 297

ثالثاً: الراغب الأصفهاني

يعتبر الراغب الأصفهاني من أبرز المفسرين وأهل اللغة عناية بدلالة السياق القرآني، من خلال كتابه المفردات خاصة، وذلك أنه يجمع الكلمات الغريبة في القرآن ويبين معناها حسب سياقها الذي وردت فيه، وهو من أهم ينبغي الرجوع إليه في معرفة دلالة السياق.

ويقرر الزركشي عنايته بدلالة السياق فيقول: "النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتابه المفردات فيذكر قيذا زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق." 298

وقال أيضاً في حديثه عن كتب غريب القرآن: "ومن أحسنها كتاب المفردات للراغب

وهو يتصيد المعاني من السياق لأن مدلولات الألفاظ خاصة." 299

رابعاً: ابن عطية.

يعتبر ابن عطية من أبرز المفسرين في العناية بدلالة السياق واعتبارها في التفسير، وقد اعتمد عليها في جانب بيان المعنى المراد، والعلاقات النحوية في الآية، وبيان الراجح على وجه الخصوص.

ويقرر تلك العناية الأستاذ الدكتور أحمد سيد خليل، المدرس بكلية الآداب في جامعة إسكندرية مصر؛ فيقول مقارناً بين تفسير ابن جرير وابن عطية: "كما نرى توسعاً ملحوظاً في بيان الألفاظ اللغوية ومعانيها في الجملة، ومعنى الجمل نفسها في السياق العام الذي تنساق فيه الآية، ثم ينتفع انتفاعاً طيباً بما استقر من الدراسات الأدبية وبخاصة البلاغية." 300

297 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣١٧/١.

298 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ١٧٢/٢.

299 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٢٩١/١.

300 السيد أحمد خليل، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن، (مصر: الوكالة الشرقية للثقافة ١٩٥٤/١٣٧٣)،

خامساً: الإمام فخر الدين الرازي.

وهو يعتبر من أبرز المفسرين عناية بدلالة لسياق من جانب اهتمامه بالمناسبات والروابط ونظم الآيات؛ ومما يدل على عنايته بذلك قوله عند تفسيره قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) [النساء: ٥٨]: "ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولاً، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط. " 301

سادساً: أبو حيان الأندلسي.

يعتبر أبو حيان من أبرز المفسرين الذين عنوا بدلالة السياق واعتبروها في تفسيرهم، ولعل سر ذلك هو بلوغ أبي حيان الرسوخ في علم اللغة والنحو والبلاغة.

فمن الأمثلة على عنايته بدلالة السياق قوله في بداية سورة البقرة؛ فيقول بعد سرد الكلام الذي يتعلق بارتباط الآيات بعضها ببعض ونظمها في سلك واحد: "فانظر إلى حسن هذا السياق الذي نوقل في ذروة الإحسان، وتمكن في براعة أقسام البديع وبلاغة معاني البيان؛ " 302 فهو يقرر بهذا الكلام عنايته بدلالة سياق الآيات من جانب ارتباط بعضها ببعض ونظمها في سلك واحد.

سابعاً: شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية.

يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم -رحمهما الله- من أبرز من اعتمد على دلالة السياق في بيان كلام الله تعالى، وترجيح الأقوال اعتماداً عليها، وقد قررا ذلك ببيان أهمية دلالة السياق.

فقال شيخ الإسلام: " فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه. وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية. " 303

301 أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠)، ١١٠/١١.

302 محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ٢٣١١.

303 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٤/٦.

وقال أيضاً: "ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع، في باب فهم الكتاب والسنة، والاستدلال بهما مطلقاً، ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب، وطرد الدليل ونقضه.. وفي سائر أدلة الخلق." 304

فبهذا تتضح كيفية اعتبار ابن تيمية بدلالة السياق وحتى صار عنده الأصل العظيم في فهم الكتاب والسنة، وفي كل العلوم عامة، بل وفي جميع حجج الخلق واستدلالاتهم.

وقال ابن القيم: "السياق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى: {ذق إنك أنت العزيز الكريم} كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيقير." 305

ثامناً: برهان الدين، البقاعي.

يعتبر البقاعي من أبرز المفسرين عناية بالمناسبات، ولذا أُلّف تفسيره نظم الدرر في تناسب الآيات والسور معتمداً فيه على بيان المناسبات والروابط بين الآيات. وهو في ذلك كثيراً ما يعتمد على دلالة السياق في بيان المناسبة والربط.

ومن أمثلة عنايته بالسياق عنايته بإظهار وجه التعبير في الآيات اعتماداً على السياق، وأغراض السورة والآيات فيها.

فقال في بيان معنى الآية ووجه التعبير فيها عند تفسيره لقوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٣٥]: "ولما كان السياق هنا لمجرد بيان النعم استعطافاً إلى المؤلفة كان عطف الأكل بالواو في قوله: "وكلا منها" كافياً في ذلك، وكان التصريح بالرغد الذي هو من أجل النعم عظيم الموقع فقال تعالى: رغداً أي واسعاً رافهاً طيباً هنيئاً حيث أي أي مكان شئتما بخلاف سياق الأعراف... ثم المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هو المعاني فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميع المعنى أو بعضه ولم يكن هناك مناقضة فإن القصة كانت حين وقوعها بأوفى المعاني الواردة ثم إن الله تعالى يعبر لنا في كل سورة تذكر القصة فيها

304 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٨١٦.

305 محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، (بيروت: دار الكتاب العربي)،

بما يناسب ذلك المقام في الألفاظ عما يليق من المعاني ويترك ما لا يقتضيه ذلك المقام، وسأبين ما يطلعني الله عليه من ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى. "306

تاسعاً: ابن عاشور

يعتبر ابن عاشور في المرتبة الثانية بعد ابن جرير في العناية بالسياق وقد صرح بعنايته بالسياق واعتماده في تفسيره، فقال: "وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتمت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى نظم الدرر في تناسب الآي والسور... ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جملة كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله. "307

الحادي عشر: سيد قطب رحمه الله

سيد قطب من أبرز المفسرين الذي جعلوا اعتماد دلالة السياق عمدة التفسير، وقد اعتمده في بيان السياق العام للسورة الذي يمثل غرض السورة ومحورها الأساسي.

وقد صرح سيد قطب- رحمه الله- نفسه ذلك المنهج في تفسيره في ظلال القرآن فقال: "فأما تجميع آيات كل سورة في السورة، وترتيب هذه الآيات، فهو توقيفي موحى به... ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص؛ ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو... إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة... وهذا طابع عام في سور القرآن. "308

وقال أيضاً في سورة النحل مبيناً مناسبة التعبير عند تفسير قوله تعالى: (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) [النحل: ٢]: "معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة الله، والمحرمين ما أحله الله، والناقضين لعهد الله، والمرتدين عن الإيمان ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق في

306 إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي)، ٢٨٣/١-٢٨٤.

307 ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٨١.

308 سيد قطب إبراهيم حسين، في ظلال القرآن، (بيروت: دار الشروق، ١٤١٢)، ٢٧١.

هذا السياق. وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى في هذا المقام. "309 فكما ترى أنه أثبت مناسبة التعبير في الآية استدلالاً بمناسبته لسياق السورة العام.



³⁰⁹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢١٦٠/٤.

الفصل الثاني: مظاهر تطبيقات دلالة السياق من خلال تفسير الإمام النسفي سورة البقرة
أنموذجاً



المبحث الأول: مظهر دلالة السياق في ألفاظ الآيات وأساليب التعبير فيها

فإذا تأملنا في ألفاظ آيات القرآن الكريم وأساليب التعبير فيها وجدنا أن لها أثراً مرشداً نقنّدي به في معرفة المعنى المراد منها. فآلفاظ الآيات وأساليب التعبير فيها دالة على معانيها بسياقها في نظمها؛ والإمام النسفي قد يعتمد في تفسيره الآيات القرآنية على هذه الدلالة التي تضمن في ألفاظها وأساليب التعبير في تركيبها ويتبين ذلك في النماذج التطبيقية التالية من خلال تفسير سورة البقرة:

(الم) [البقرة: ١]

فأثبت الإمام في أثناء تفسير الآية دلالة السياق فيها، من حيث وردت السورة مُصَدَّرَةً بلفظ هذه الأحرف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن عن الإتيان بمثله وإيقاظه للأسماع أول ما تسمعه بنوع من الإغراب، وكانت العرب يستبعدون من الأمي الذي لا يعلم الخط والتلاوة أن يتكلم من تلقاء نفسه بهذا القرآن الذي في نظمه الإعجاز فإن السياق في ورود السورة مُصَدَّرَةً بلفظ الأحرف المقطعة التي تشير على إعجاز القرآن عن الإتيان بمثله وإيقاظه للأسماع أول ما تسمعه بنوع من الإغراب فيدل هذا السياق على أن القرآن منزل من عند الله وشاهد لصدق نبوة نبينا محمد ﷺ³¹⁰.

وعند التأمل العميق يؤكد ثبوت تلك الدلالة في الآية أن تلك السور التي افتتحت بالحروف المقطعة وسياقها العام وافتتاحيتها، -ومنها سورة البقرة -جميعاً تتحدث عن القرآن وعظمته. ويقول في ذلك ابن كثير رحمه الله: "كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء." 311

(ذَلِكَ الْكِتَابُ) [البقرة: ٢]

فقال الإمام: "وإنما ذُكِرَ اسم الإشارة، والمشار إليه مؤنث، -وهو السورة- لأن الكتاب إن كان خبره كان ذلك في معناه، ومسماه مسماه، فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير... ومعناه أن ذلك هو الكتاب الكامل، كأن ما عده من الكتب في مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال... " 312

فسر الإمام هذه الآية هنا بدلالة سياقها من وجهين:

³¹⁰ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٦/١.

³¹¹ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (دار طيبة، ١٤٢٠، ١٩٩٩)، ١٦٠/١.

³¹² أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٨/١.

الوجه الأول: أن سياق الآية يدل على جواز ورود العبارة باسم الإشارة مذكراً وإن كان المشار إليه مؤنثاً، -وهو السورة- من حيث كان الكتاب الذي سيق الكلام به خبراً لاسم الإشارة (ذَلِكَ) فأجري حكم الخبر على المبتدأ بتذكير اسم الإشارة.

الوجه الثاني: أن تعبير الآية بكلمة (الْكِتَابُ) يشير على أنه هو الكتاب الكامل من بين الكتب المنزلة من قبله، كما يدل عليه تعريفه هنا- بالألف واللام -ويفهم به كمالية الكتاب المعرف، وقال الله تعالى في آية أخرى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ) [سورة المائدة: ٤٨]، وفي تعبير الآية بلفظ الكتاب دلالة سياقية على أنه كتاب كامل وجامع للعلوم الثابتة في الكتب المنزلة من قبله، والكتب في اللغة يدل على الجمع ومنه الكتيبة؛³¹³ ولقد ذكر هذا المعنى في عدد من كتب التفسير.

314

كأن معنى الآية يكون أي كتاب لم يستمد علمه ومضمونه من هذا الكتاب فهو ناقص، وأن أي علم يخرج عما في هذا الكتاب لا يسمى علماً حقيقياً ولا يهدي للكمال؛ ولهذا فينبغي على كل المسلم أن يقبل على هذا الكتاب العظيم بكليته فينهل منه العلوم ويأخذ منه الهدى والخير كله، فهو الكتاب الكامل الذي لا يباريه كتاب.

فاستند الإمام عند تفسير قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) بأن ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل إلى تعبير الآية بلفظ (الْكِتَابُ) المعرف بالألف واللام.

ثالثاً: قال الإمام عند خلاصة تفسير لقوله تعالى: (الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ٢-١]: "والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يقال: إن قوله تعالى: (الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها وذلك الكتاب جملة ثانية ولا ريب فيه ثالثة وهدى للمتقين رابعة؛ وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جر إلى الثالثة والرابعة..."³¹⁵

فاستشهد الإمام بدلالة سياق ألفاظ الآية والترتيب المتناسب فيها على أن الآية نظمت في أحسن نظام وأبدعه، وذلك أنها مرتبة حسب الكمال والدلالة والاقتران، فكل واحدة دالة على كماله من وجه، وهي أيضاً دالة على ما بعدها مقترنة بها، فالوصف الأول وهو كمال إعجازه دال على الوصف الثاني وهو أنه

³¹³ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: جماعة من اللغويين، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤)، ٧٠١١.

³¹⁴ الزمخشري، الكشاف، ٣٣١- ٢٢٠.

³¹⁵ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٤٠/١.

الكتاب الأكمل، وكمال الكتاب دال على الوصف الثالث وهو كمال سلامته من الريب والنقص والخلل، وكمال سلامته دال على الوصف الرابع، وهو كمال الانتفاع والاهتداء، إذ لا أكمل مما كمل انتظامه وحسن بناؤه. فلم تخل كل واحدة من الأربع، بعد أن رتبت بهذا الترتيب الأنيق، ونظمت بهذا النظم الدقيق، من نكتة جزيلة، فدلّت الآية بدلالاتها السياقية على كمال هذا الكتاب وسمو مقصده وعظم أثره، وعلو منزلة أهله وخصوصيتهم وعاقبتهم.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [البقرة: ٤]

فاستخرج الإمام -رحمه الله- من تركيب الفاظ هذه الآية دلالة سياقية من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن الإتيان بمنّ التبعية في الآية يدل بسياقها التركيبي على صيانة المتقين عن التبذير المنهي عنه في الإنفاق، كما قال الله تعالى: (وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) [الإسراء: ٢٦]³¹⁶.

فمعلوم أن الله تعالى منع في مسألة الإنفاق من الشح والبخل وكذلك أمر تعالى بالاعتقاد الذي هو بين الإسراف والتقتير في الإنفاق ولو كان في سبيل الخير؛ كما قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [الفرقان: ٢٧]؛ وقال الله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) [الإسراء: ٢٩]. فيلزم على المنفق أن يكون في الإنفاق بين الإعطاء والتبذير، وبين الشح والاعتقاد، فالإعطاء غير التبذير، والاعتقاد: غير البخل، فالمنع في مكان الإعطاء منكر والإعطاء في مكان المنع منكر أيضا.

وقد استخرج أيضا هذه الدلالة من تركيب الآية ابن عاشور والشنقيطي -رحمهما الله- في تفسيرهما، وقال ابن عاشور: "وفي الإتيان بمنّ التي هي للتبعية إيماء إلى كون الإنفاق المطلوب شرعا هو إنفاق بعض المال." ³¹⁷

وقال الشنقيطي: "عبر في هذه الآية الكريمة بمنّ التبعية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله." ³¹⁸

³¹⁶ النسفي، المدارك، ٤٢١.

³¹⁷ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٣٦١.

³¹⁸ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (بيروت: دار ابن حزم، الرياض: دار عطاءات العلم، ١٤٤١/٢٠١٩)، ٥٥١.

الوجه الثاني: أن تقديم المفعول في الآية يدل دلالة سياقية على أهمية الرزق حيث يكون في هذا التقديم إيماء إلى أنهم ينفقون بعض ما رزقه الله تعالى لهم من الحلال ويؤثرون ذوي الحاجة على أنفسهم مع ما في النفوس من المحبة والمعزة للرزق.

ولقد أشار الكشف وابن عاشورا في تفسيرهما على هذا المعنى فقال صاحب الكشف: "وقدّم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم كونه قال: ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به." ³¹⁹ وقال ابن عاشورا: "وتقديم المجرور المعمول على عامله -وهو ينفقون- لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس؛ كقوله تعالى: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) [الإنسان: ٨]." ³²⁰

الوجه الثالث: أن ورود أوصاف المؤمنين متصلة بصلة حرف العطف ففيه دلالة سياقية على أن الأعمال ليست من الإيمان مخالفة على جمهور المحدثين من أهل السنة والجماعة وعلى المعتزلة والخوارج- لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عطف على الإيمان بالغيب والعطف في بلاغة لغة العرب يقتضي ثبوت المغايرة في المعطوف والمعطوف عليه فالأعمال من الصلاة والزكاة ليست بداخلة في تعريف الإيمان كما هو مذهب الماتريدي والأشاعرة من أهل السنة والجماعة مع ثبوت اختلاف قليل بينهم في هذه المسألة وبيان ذلك يذكر في كتب العقيدة بالتفصيل فليراجع إليها من كان يريد التفصيل في هذه المسألة.

(وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) [البقرة: ٤]

فاستدل الإمام بورود كلمة (الْآخِرَةُ) مؤنثة على أنها صفة للمحذوف- وهو الدار- الذي يجوز تأنيث كلمة الآخر الذي هو ضد الأول من ناحية القاعدة النحوية واستخرج هذا المحذوف أيضا من قوله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ) [القصص: ٨٣]. ³²¹

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [البقرة: ٥]

ففسّر الإمام النسفي هذه الآية استنادا على دلالة السياق في تركيب ألفاظها من ثلاثة أوجه:
الوجه الأول: أن تنكير كلمة (هُدًى) يدل بسياقها في تركيب الآية على أنه هدى عظيم من الله لا يعلم كنهه إلا هو لأن التنكير قد يفيد التعظيم.

³¹⁹ الزمخشري، الكشف، ٤٠١.

³²⁰ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٣٦١.

³²¹ أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٤٣١.

الوجه الثاني: أن إتيان ضمير الفصل بكلمة (هُم) يدل بسياقها في تركيب الآية على أن الكلمة الواردة بعدها خبر (أُولَئِكَ) ليست صفة وتأكيذا لها وأن الفلاح ثابت للمتقين فقط دون غيرهم.

الوجه الثالث: أن ذكر اسم الإشارة بلفظ (أُولَئِكَ) المشعر بعلو درجة المتقين وتكريره في الآية يدل على التنبيه على اختصاصهم بنيل درجة عالية لا ينالها أحد من دونهم³²².

(حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة: ٧]

فتنكير كلمتي (غِشَاوَةً) و (عَذَابٌ) يدل بسياقهما في تركيب الآية على أن على أبصارهم نوعا من التغطية غير ما يتعارف الناس، وهو غطاء التعامي عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم من العذاب، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى؛ لأن التنكير في العبارة قد تفيد التعظيم في المعنى.³²³

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) [البقرة: ٨]

فسر الإمام هذه الآية استنادا لدلالة السياق في ألفاظها وأسلوب تعبيرها من وجهين:

الأول: استدلل بتكرير الباء على إدعائهم أنهم صادقون في إيمانهم بالله وباليوم الآخر على مستوى سوي.

الثاني: أن قوله تعالى: (وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) ورد لإنكار ما ادعوه من الإيمان، فتركيب الآية بهذا الأسلوب البليغ يدل على أن المنافقين لم يكونوا من المؤمنين فضلا عن أن يكونوا لم يؤمنوا، فسلب الله الإيمان من ذاتهم لا من فعلهم، وهذا أبلغ رد وأكد من سلب الإيمان من فعلهم.³²⁴

قوله تعالى: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) [البقرة: ٩]

فاستدل الإمام بإسناد الخداع الى الله في ظاهر تركيب هذه الآية على أن الله تعالى رفع منزلة نبيه -محمد صلى الله عليه وسلم- من حيث أنه تعالى اعتبر من خادع نبيه أنه خادع الله تعالى.³²⁵

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٢]

إستئناف الآية وفي تركيبها ثلاث أدوات التأكيد يدل بسياقه على أن الله تعالى أنكر عليهم ما ادعوه من أن يكونوا من جملة المصلحين، بوجه أبلغ وأدله على وعيده العظيم، حيث قال الإمام: "وقد رد الله ما

³²² النسفي، المدارك، ١١-٤٣-٤٤.

³²³ النسفي، المدارك، ١١-٤٦.

³²⁴ النسفي، المدارك، ١١-٤٧-٤٨.

³²⁵ النسفي، المدارك، ١١-٤٨.

ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ رد وأدله على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في ألا وإن من التأكيد وتعريف الخبر وتوسيط الفصل. "326

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٣]

تنبت دلالة السياق في هذه الآية بأن وردت هذه الآية بلفظ (لَا يَعْلَمُونَ)، بسبب ذكر كلمتي "السُّفَهَاءُ" و"آمِنُوا" في أولها، فيدل سياق ذلك الورود على أن في تركيب الآية ونظمها حسن طباق ومناسبة بين ألفاظها، من حيث أن ذكر العلم يطابق مع السفه الذي يورث الجهل، وأن الإيمان يقتضي العلم الذي يورث المعرفة. وأما الآية السابقة فجاءت بلفظ (وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) بسبب ورود "لا تفسدوا في الأرض" في أولها، لأن الفساد في الأرض أمر يعرف بالحواس والشعور، لا بالعلم والمعرفة. فناسب في هذه الآية ذكر (لَا يَعْلَمُونَ)، وفي الآية السابقة ذكر (وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ). 327

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) [البقرة: ١٤]

فيمكن أن نثبت استعمال الإمام دلالة السياق في تفسير هذه الآية من وجهين:

الأول: أن خطاب المنافقين على المؤمنين بالجملة الفعلية (آمَنَّا) التي تفيد الحدوث مطلقا يدل سياق هذا الخطاب على أن المنافقين اكتفوا في ادعاء حدوث مطلق الإيمان ونشئه من قبلهم، ولم يستطيعوا على ادعاء أنهم أوحديون مع المؤمنين في ذلك الإيمان، وأما في خطابهم على إخوانهم من اليهود، فاستعملوا الجملة الإسمية، المؤكدة بأن (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) التي تفيد الدوام والثبوت والاستقرار، ويدل سياق هذا الخطاب على ثباتهم على دين إخوانهم من اليهود.

الثاني: أن قولهم (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) يدل بسياقه أن المنافقين أنكروا الإسلام وثبتوا في اليهودية بسبب إستهزائهم المسلمين لأن الإستهزاء بشيء يعتبر إنكارا له والإنكار لشيء يعتبر اثباتا نقيضه. 328

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [البقرة: ١٦]

326 النسفي، المدارك، ٥١-٥٠١١.

327 النسفي، المدارك، ٥٢-٥١١١.

328 النسفي، المدارك، ٥٣-٥٢١١.

فظهر من تفسير الإمام لهذه الآية أن الإمام استند على دلالة سياقها في جواز البيع تعاطياً وإن لم يتكلم فيه لفظ الشراء، كما سمي ترك المنافقين الهدى بالضلالة عن اختيارهم شراء في الآية. 329

قال الإمام عند تفسير قوله تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...) [البقرة: ١٩]: "وتنكير صيب لأنه نوع من المطر شديد هائل... ونكرت هذه الأشياء لأن المراد أنواع منها كأنه قيل فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف. 330"

فتنكير أربعة ألفاظ في هذه الآية يدل بسياقه على أن كلا منها أريد به نوع عظيم الشأن منه، لا يعلم كنهه إلا الله.

قال الإمام عند تفسير قوله تعالى: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) [البقرة: ٢٠]: "وذكر مع (أضاء) كُلَّمَا ومع (أظلم) إِذَا؛ لأنهم حراس على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف، (قَامُوا) وقفوا وثبتوا في مكانهم ومنه قام الماء إذا جمد. 331"

فتنقيد كلمة "أضاء" بلفظ "كُلَّمَا"، وكلمة "أظلم" بلفظ "إِذَا" يدل بسياقه على أن حال المنافقين في الإضاءة مختلفة تامة من حالهم في الإظلام؛ فهم يحرصون وقت الإضاءة على وجود الإمكان من المشي، وكلما وجدوه أخذوه فرصة للمشي، ومشوا فيه، وأما في وقت الإظلام فليست حالهم كذلك؛ فلا يحرصون على وجود الإمكان من التوقف، بل يقفون فيه، ويثبتون في مكانهم الذي وصلوا إليه وقت الإضاءة.

قال الإمام عند تفسير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) [البقرة: ٢١]: "ويا حرف وضع لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب، ثم استعمل في مناداة من غفل وسها، وإن قرب ودنا، تنزيلاً له منزلة من بعد ونأى، فإذا نودي به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جداً... وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعدته ووعدته أمور عظام، وخطوب جسام، يجب عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها، وهم عنها غافلون. فاقترض الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ. 332"

329 النسفي، المدارك، ٥٣١-٥٤.

330 النسفي، المدارك، ٥٨١-٥٩.

331 النسفي، المدارك، ٦٠١-٦١.

332 النسفي، المدارك، ٦٢١-٦٢.

فنداء الله تعالى للناس على هذه الطريقة المؤكدة والبليلة بإنزالهم في مناداة منزلة من بُعد ونأى يدل بسياقه على أنهم غافلون وساهون عما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه فناسب أن ينادوا بهذا الأسلوب البليغ ليتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم إليها.

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) [البقرة: ٢٤]

نثبت في هذه الآية دلالة السياق من وجهين:

الأول: أن تركيب الآية بحرف "إن" الذي يفيد الشك، لا بحرف "إذا" الذي يفيد الوجوب يدل بسياقه على أن الإتيان بمثل القران قبل التأمل فيه كان في ذهنهم شيئاً مشكوكاً فيه بسبب أن يرون أنفسهم أصحاب البلاغة والفصاحة فسيق الكلام معهم على حسب حساباتهم.

الثاني: أن تعبير الإتيان بالفعل يدل بسياقه على أن في تركيب الآية بهذا الشكل إيجاز الكلمات وإلا طالت بأن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله.³³³

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) [البقرة: ٢٥]

فتتكرر كلمة جَنَّاتٍ في الآية وجمعها يدل بسياقها أن في دار الثواب جناتاً كثيرة مرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان.³³⁴

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) [البقرة: ٢٩]

فرجح الإمام إستدلال الكرخي، وأبو بكر الرازي، والمعتزلة، بقوله تعالى: "خلق لكم" على أن الأشياء التي يصح أن ينتفع بها، خلقت مباحة في الأصل، انطلاقاً من دلالة السياق الذي يفيد معنى الانتفاع بحرف الهمزة في "خلق لكم". فمعناه خلق لإنتفاعكم ما في الأرض جميعاً.³³⁵

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [البقرة: ٣٢]

أعمل الإمام دلالة السياق في تفسير هذه الآية بأن تنزيه الملائكة لله تعالى في هذه الآية بعد الإعتراض عليه والإجابة من الله عليهم في الآيات السابقت يدل بسياقه على أن علم الأسماء فضلاً عن علم الشريعة أفضل من التخلي للعبادة.³³⁶

333 النسفي، المدارك، ٦٦١.

334 النسفي، المدارك، ٦٩١.

335 النسفي، المدارك، ٧٦١.

336 النسفي، المدارك، ٧٩١.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة: ٣٧]

أخذ الإمام من هذه الآية أن فيها موعظة لذرية آدم وحواء ليعرفوا كيفية السبيل إلى التنصل من الذنوب استنادا على دلالة سياقها من حيث ذكر في سباقها من الآيات أن الله تعالى أنعم عليهما بعد خلقهما، بإسكانهما في الجنة، والأكل منها رغدا حيث شاء، بشرط أن لا يأكلا من الشجرة؛ فأكلا منها بوسوسة ابليس، فأمر الله عليهما أن يهبطا من الجنة إلى الأرض. وذكر في هذه الآية بعد سرد الآيات السابقات أن الله وفقهما إلى التوبة فتابا إليه وتاب الله عليهما. فانطلاقا من سياق مقطع الآيات، قال الإمام " وفيه موعظة لذريتهما؛ حيث عرفوا كيفية السبيل إلى التنصل من الذنوب. "337

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) [البقرة: ٤٩]

فسر الإمام هذه الآية استنادا على دلالة السياق، من حيث ورد قوله تعالى: " يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ " من دون حرف العاطف، فقال: " (يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) بيان لقوله (يَسُومُونَكُمْ)، ولذا ترك العاطف. "338

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) [البقرة: ٥٩]

استند الإمام في هذه الآية على دلالة السياق من حيث استدل من تكرير كلمة الذين ظلموا مرة ثانية على أن الله أقبح أمرهم في تبديل القول غير الذي قيل لهم وأخبر أن إنزال الرجز عليهم كان بسبب ظلمهم؛ فقال عند تفسير الآية: "وفي تكرير الذين ظلموا زيادة في تقبيح أمرهم، وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم. "339

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) [البقرة: ٩٦]

استند الإمام في هذه الآية على دلالة السياق من حيث أن "الَّذِينَ أَشْرَكُوا " خصوا بالذكر وإن دخلوا تحت الناس لأن الحرص على الحياة أشد فيهم بالنسبة لسائر الناس فيدل السياق على أن في الآية توبيخ عظيم فقال الإمام: "نعم. قد دخل الذين أشركوا تحت الناس، ولكنهم أفردوا بالذكر؛ لأن حرصهم شديد كما أن جبريل وميكائيل خُصّا بالذكر وإن دخلا تحت الملائكة، أو أريد وأحرص من الذين أشركوا، فحذف لدلالة أحرص الناس عليه. وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة

337 النسفي، المدارك، ٨٢١.

338 النسفي، المدارك، ٨٨١.

339 النسفي، المدارك، ٩٢١.

الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد؛ لأنها جنتهم فإذا زاد في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لعلمهم بحالهم، والمشركون لا يعلمون ذلك. "340

(مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة: ٩٨]

أن تخصيص جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ بالذكر يدل على أنهما أفضل من سائر الملائكة فقال الإمام: "وخص المَلَكَانِ بالذكر لفضلهما".

وتعبير الكافرين في الآية بالإظهار بدلا من الإضمار يدل على أن كون الله عدوا للكفار بسبب كفرهم، وقال الإمام "وأن عداوة الملائكة كفر كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداه الله. "341

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [البقرة: ١٠٥]

استخرج الإمام من هذه الآية استنادا على سياقها أن إيتاء النبوة من فضل الله العظيم حيث قال: "(والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ): "فيه إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم. "342

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) [البقرة: ١٢٣]

تكرير هذه الآية في سياق السورة يدل على أن اليهود تكرر منهم المعاصي بعضها إثر بعض، وختمت قصتهم بما بدأ به، فقال الإمام: "وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم، وختم قصة بني إسرائيل بما بدأ به. "343

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٧٩]

فسياق تركيب هذه الآية يدل على أنها في أعلى درجة في الفصاحة، حيث تفيد الغرابة في المعنى، وهو إثبات حصول الحياة في القصاص الذي يوجب القتل، والبلاغة البينة في تنكير الحياة، وأوضح الإمام هذه الدلالة عند تفسيرها، فقال: "(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) كلام فصيح لما فيه من الغرابة؛ إذ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفاً للحياة، وفي تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بينة لأن المعنى

340 النسفي، المدارك، ١١٢/١.

341 النسفي، المدارك، ١١٤/١.

342 النسفي، المدارك، ١١٨/١.

343 النسفي، المدارك، ١٢٦/١.

ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو اختصاص حياة عظيمة، لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا، فكان القصاص حياة وأي حياة أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل، لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل، فتذكر الاقتصاص، ارتدع، فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود، فكان شرع القصاص سبب حياة نفسين. "344

(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا) [البقرة: ١٨٧]

تركيب الآية يدل بسياقه على أن مكان الاعتكاف في الشرع لا يكون إلا في مسجد من المساجد استند الإمام هذا السياق عند تفسير هذه الآية فقال: "(وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ) معتكفون فيها... والجملة في موضع الحال، وفيه دليل على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد. "345

(وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ١٩١]

يدل سياق الآية في ترتيبها على أن عموم بداية الآية خُصَّصَ بنهايتها، وبين الإمام هذه الدلالة في الآية، وقال: "(وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) أي ولا تبدؤوا بقتالهم في الحرم حتى يبدؤوا.... إلا أن يبدؤوا بالقتال معنا، فحينئذ نقتلهم، وإن كان ظاهر قوله: (وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ) يبيح القتل في الأمكنة كلها، لكن لقوله: (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) خص الحرم إلا عند البداءة منهم. "346

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ وَالضَّرَّاءُ وَرُلُزُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤]

فسرد الآية بلفظ "ولما" يدل بسياقه على أن مجيء البأساء والضراء على المسلمين أمر متيقن وقوعه، كما وقع على الذين من قبلهم وفسر الإمام هذه الآية انطلاقاً من هذا الدلالة فقال: "(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ) أي ولم يأتكم وفي لما معنى التوقع يعني أن إتيان ذلك متوقع، منتظر. "347

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ) [البقرة: ٢١٦]

344 النسفي، المدارك، ١٥٦/١.

345 النسفي، المدارك، ١٦٣/١.

346 النسفي، المدارك، ١٦٦/١.

347 النسفي، المدارك، ١٧٨/١.

الإخبار عن القتل أنه كره لهم، وهو معنى مصدري، كأنه نفس الكراهة، فيدل بسياقه على أنهم فرطوا في الكراهة للقتل، واستند الإمام هذه الدلالة في قوله عند تفسير هذه الآية فقال: " (وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ) من الكراهة فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة، كأنه في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له. "348

(نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَى شَيْئُمْ) [البقرة: ٢٢٣]

فسرد هذه الآية بالألفاظ الكنائية وعرضها في أسلوب التعريض الأحسن كما ترى، يدل بسياقه على أن الله ندب المسلمين ليتأدبوا بمثل هذا الأسلوب في المكاملة والمكاتبة فيما بينهم. وأثبت الإمام هذه الدلالة عند تفسير الآية فقال: "(فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَى شَيْئُمْ) من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، فعلى كل مسلم أن يتأدب بها، ويتكلف مثلها في المحاورات والمكاتبات. "349

ومجي جملة "يسئلونك" في نظم الآيات في هذه السورة بحرف العطف ثلاث مرات، ومجيئها أيضا بلا واو ثلاث مرات أخرى، يدل بسياقها النظمي على أن السؤالات بلا واو وقعت في مختلفة الأحوال فلم يؤت بحرف العطف، وأن السؤالات بحرف العطف وقعت في وقت واحد، فجمع بينها بالعطف. فأثبت الإمام تلك الدلالة وقال: "وإنما جاء يسئلونك ثلاث مرات، بلا واو، ثم مع واو ثلاثا، لأن سؤالهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع في أحوال متفرقة فلم يؤت بحرف العطف؛ لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ، وسألوا عن الحوادث الآخر في وقت واحد، فجئ بحرف الجمع لذلك. "350

(وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) [البقرة: ٢٢٨]

أمر الله تعالى في هذه الآية المطلقات من النساء أن يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، ولكن أنشأ أمره في صورة الخبر ليدل سياق الآية تأكيد هذا الأمر كأنه مما امتثل به في الواقع وأكد هذه الدلالة إتيان الآية بالجملة الاسمية التي تفيد الدوام والثبوت في الأمر، ومن ناحية أخرى تذكير كلمة الأنفس في هذه الآية يدل على أن أنفس النساء في العادة مائلة الى الرجال ويجب عليهن في هذه المدة أن يجبرن أنفسهن بالتربص إلى إنتهاء المدة، وأثبت الإمام تلك الدلالة وقال: "(يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ) خبر في معنى الأم، وأصل الكلام: ولتتربص المطلقات. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكانهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً. ونحوه قولهم في الدعاء رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة كأنما وجدت الرحمة، فهو يخبر عنها، وبناءه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل تأكيد؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام وإثبات بخلاف الفعلية، وفي ذكر

348 النسفي، المدارك، ١٧٩/١.

349 النسفي، المدارك، ١٨٦/١.

350 النسفي، المدارك، ١٨٦/١.

الأنفس تهيبج لهن على التربص، وزيادة بعث؛ لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنهن على الطموح، ويجبرنهن على التربص. "351

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) [البقرة: ٢٣٠]

اسناد النكاح الى المرأة في الآية يدل بسياقه على أن النكاح ينعقد بعبارتها وأكد الإمام هذه الدلالة عندما فسر هذه الآية وقال: " والنكاح يسند إلى النساء ، كما يسند إلى الرجال كالترزوج، وفيه دليل على أن النكاح ينعقد بعبارتها. " 352 وقال أيضا: "(فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ) [البقرة: ٢٣٢]... وفيه إشارة إلى انعقاد النكاح بعباراة النساء. "353

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [البقرة: ٢٣٣]

سرد الآية في شكل الإخبار وهي تفيد الأمر يدل بسياقه على تأكيد ذلك الأمر، وهو إرضاع الأولاد، وأشار الإمام الى هذه الدلالة فقال: "(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ) خبر في معنى الأمر المؤكد. "354

وسياق الآية يدل على أن إتمام الرضاعة يجب على الأب دون الأم لأن الحكم بالإرضاع وجه في الآية الى الأب وأوضح الإمام هذه الدلالة في تفسيرها فقال: "(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) بيان لمن توجه إليه الحكم، أي هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة، والحاصل: أن الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظنراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهي مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه. (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ) وإنما قيل على المولود له دون الوالد، ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، إذ الأولاد للآباء، والنسب إليهم، لا إليهن، فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن، إذا أرضعن ولداهم. "355

(وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ) [البقرة: ٢٣٥]

تعبير بلفظ العزم في النهي عن عقد النكاح يدل بسياقه على أن في هذا النهي مبالغة، من حيث إذا نهي عن العزم، فالنهي عن عقد النكاح في الفعل من باب الأولى وأخرى وأشار الإمام الى هذه الدلالة في الآية وقال: (وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ) من عزم الأمر وعزم عليه، وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد

351 النسفي، المدارك، ١٨٨/١-١٨٩.

352 النسفي، المدارك، ١٩٢/١.

353 النسفي، المدارك، ١٩٣/١.

354 النسفي، المدارك، ١٩٤/١.

355 النسفي، المدارك، ١٩٤/١.

النكاح، لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى، ومعناه: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح. 356

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) [البقرة: ٢٤٣]

وفي سياق هذه الآية تشجيع للمسلمين على الجهاد؛ لأن قوله تعالى بعد هذه الآية: (وقاتلوا في سبيل الله)، يأمرهم بالقتال في سبيل الله وأشار الإمام إلى هذه الدلالة، وقال: "وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكن منه بد، ولم ينفع منه مفر، فأولى أن يكون في سبيل الله. والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثاً على الجهاد، ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله، وهو قوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله)، فحرض على الجهاد، بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغني. 357

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة: ٢٥٥]

وألفاظ الآية والترتيب فيها تدل على أن الآية نظمت في أحسن نظام وأبدعه، وتتابعتم الجمل فيها بلا عطف، فهذا يدل بسياقه على أن الجمل الآتية في الآية وردت على سبيل البيان وأوضح الإمام هذه الدلالة وقال: "وإنما ترتبت الجمل في آية الكرسي بلا حرف عطف؛ لأنها وردت على سبيل البيان، فالأولى ببيان لقيامه بتدبير الخلق، وكونه مهيمناً عليه، غير ساهٍ عنه، والثانية لكونه مالكا لما يدبره، والثالثة لكبرياء شأنه، والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق، والخامسة لسعة علمه، وتعلقه بالمعلومات كلها، أولجلاله، وعظم قدره. 358

وأقول: وإنما فضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد لاشتغالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [البقرة: ٢٥٧]

356النسفي، المدارك، ١٩٧١.

357النسفي، المدارك، ٢٠٢١.

358 النسفي، المدارك، ٢١٠١.

جمعت كلمة الظلمات في سياق الآية لدلالة أن ظلمات الكفر مختلفة الأنواع، ووحدت كلمة النور لدلالة اتحاد الإيمان، وأشار الإمام إلى هذه الدلالة، وقال: "(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ) من ظلمات الكفر والضلالة وجمعت لاختلافها (إِلَى النُّورِ) إلى الإيمان والهداية ووجد لاتحاد الإيمان." 359

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٢٥٨]

أخرج الإمام من سياق هذه الآية أن تعلم علم الكلام، والمناظرة فيه حكمه مباح وليس حرام، والمسلمون محتاجون إلى ذلك حين يدعون الناس إلى الإسلام، أوضح الإمام دلالة هذه الآية، وقال: والآية تدلّ على إباحة التكلم في علم الكلام، والمناظرة فيه؛ لأنه تعالى قال: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ)، والمحاجة تكون بين اثنين، فدل على أن إبراهيم حاجّه أيضاً، ولو لم يكن مباحاً لما باشرها إبراهيم عليه السلام لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام، ولأننا أمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإذا دعوناهم إلى ذلك لا بد أن يطلبوا من الدليل على ذلك، وإذا لا يكون إلا بعد المناظرة. 360

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٢٦٢]

العطف بـ"ثم" في سياق الآية يدل على أن أهم شيء في الإنفاق هو ترك المنفق المن والأذى على المنفق عليه، وحتى تركهما أفضل من نفس الإنفاق، وأشار الإمام إلى هذا المعنى انطلاقاً من دلالة سياق هذه الآية، وقال: "(ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا) ... ومعنى "ثم" إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه، بقوله ثم استقاموا. 361"

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٧٥]

359 النسفي، المدارك، ٢١٢/١.

360 النسفي، المدارك، ٢١٣/١.

361 النسفي، المدارك، ٢١٧/١.

إستخرج الإمام ثلاث مسائل من هذه الآية إستنادا الى دلالة سياقها:

المسألة الأولى: أن القياس الذي يخالف النص الصريح باطل، حيث جعل الله تسويتهم بين البيع والربا في إحلال الله قياسا باطلا، وقال الإمام: "(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحل مع الحرمة ضدان، فأنى يتمثلان، ودلالة على أن القياس يهدمه النص؛ لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه.

المسألة الثانية: أن الإمام قيد كلمة "عَادَ" بصلة التي يشير إليها ما تقدم من استحلال الربا، وقال: (وَمَنْ عَادَ) إلى استحلال الربا عن الزجاج أو إلى الربا مستحلاً.

المسألة الثالثة: أن من استحل ما حرم الله فهو كافر، وقال الإمام: (فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين لأن من أحل ما حرم الله عز وجل فهو كافر³⁶²
(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)[البقرة: ٢٧٩]

تنكير كلمة حرب في الآية يدل بسياقها على أن هذا الحرب حرب عظيم لا يقاس بحرب من الحروب لأنه حرب من الله تعالى شأنه، وقال الإمام في هذه الدلالة: " ولم يقل بحرب الله ورسوله لأن هذا أبلغ لأن المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله ورسوله. "363

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ)[البقرة: ٢٨٢]

توصيف الكاتب في الآية بالعدل يدل بسياقها على أن يجب أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بشروط التدوين، حتى يقع مكتوبه موافقا على الشرع ، وأثبت الإمام هذه الدلالة عند تفسير هذه الآية، وقال: "(كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ) هو متعلق بكاتب صفة له أي كاتب مأمون على ما يكتب، يكتب بالاحتياط لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص، وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط، حتى يجئ مكتوبه معدلاً بالشرع، وهو أمر للمتدينين بتخيير الكاتب، وألا يستكتبوا إلا فقيهاً ديناً حتى يكتب ما هو متفق عليه. "364

(وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ)[البقرة: ٢٨٣]

362 النسفي، المدارك، ٢٢٤/١-٢٢٥.

363 النسفي، المدارك، ٢٢٦/١.

364 النسفي، المدارك، ٢٢٧/١.

توصيف الرهن في الآية بالقبض يدل بسياقها على أن القبض مشروط في الرهن، وقال الإمام: " وقوله: (مَقْبُوضَةٌ) يدل على اشتراط القبض لا كما زعم مالك أن الرهن يصح بالإيجاب والقبول بدون القبض. "365

(أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) [البقرة: ٢٨٥]

إسناد الإيمان للمؤمنين في الآية بفعل الماضي، وطلبهم غفران ربهم فيما ارتكبوا من الذنوب، يدل بسياقها على بطلان الاستثناء في الإيمان، على بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر من الذنوب، وقال الإمام عند تفسير الآية: "والآية تدل على بطلان الاستثناء في الإيمان وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر. "366

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة: ٢٨٦]

فسر الإمام في هذه الآية قوله تعالى: (إِلَّا وُسْعَهَا) إلا طاقتها وقدرتها، استنادا على سياقها، حيث ذكر قبلها التكليف الذي لا يأتي إلا على المقدور، فقال: "(إِلَّا وُسْعَهَا) إلا طاقتها وقدرتها لأن التكليف لا يرد إلا بفعل يقدر عليه المكلف. "367

المبحث الثاني: مظهر دلالة السياق في كشف المعنى المراد

يستند الإمام النسفي -رحمه الله- على دلالة السياق في بيان المعنى المراد لآيات القرآن الكريم، وقد يشير الى ما يبين معنى المراد للآيات من سياقها سابقا ولحاقا ويجتهد في الأخذ به؛ ويتبين ذلك في النماذج التطبيقية التالية من خلال سورة البقرة:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) [البقرة: ٢]

قال الإمام في تفسير هذه الآية: "أي ذلك الكتاب الذي وعد به على لسان موسى وعيسى عليهما السلام. "368 فهو القرآن الكريم. فهذا المعنى الذي ذهب اليه الإمام- رحمه الله- لبيان معنى الكتاب يتوافق مع سياق الآيات والسورة من حيث أن السياق في إظهار شأن القرآن وعلو منزلته، وكون القرآن هو الكتاب الأكمل الذي سبق غيره في كماله وعلو منزلته، ومع ذلك تتحدث السورة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالتفصيل والتطويل، كما هو واضح لمن نظر وتأمل فيها.

365 النسفي، المدارك، ٢٣٠/١.

366 النسفي، المدارك، ٢٣٣/١.

367 النسفي، المدارك، ٢٣٣/١.

368 النسفي، المدارك، ٣٨/١.

(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ٢]:

فاستدل الإمام بدلالة سياق الآية على تفسيره كلمة (هُدًى) بأنه الدلالة الموصلة إلى البغية حيث جاءت بعد هذه الآية كلمة الضلالة مقابلة للهدى في قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى) [البقرة: ١٦].³⁶⁹ فتبين كون مصير الكافرين والمنافقين في الضلالة، عندما أعرضوا عن الهدى وهو القرآن الكريم.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [البقرة: ٣]

فاستخرج الإمام بطريق دلالة السياق أن المعنى المراد من مِمَّا في قوله (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) الزكاة تارة بقربة الصلاة التي تقتريه في السياق من حيث أن سباق الآية وهو يقيمون الصلاة يدل بسياقها على أن المعنى المراد منها الزكاة وهي أخت الصلاة في كثير من الآيات. وتارة أخرى أن المعنى المراد منها يكون عاما شاملا على الزكاة وغيرها من الصدقات في سبيل الخير لإتيان اللفظ مطلقا فلا يمتنع من إرادة الزكاة وغيرها من النفقات وتعين على هذا المعنى العام كلمة (يُنْفِقُونَ) لغة؛ لأن كل ما كان من الكلمة فإؤه نونا وعينه فاء فدل على معنى الخروج والذهاب.³⁷⁰

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

فقال الإمام عند تفسير هذه الآية: "(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا بكل وحي أنزل من عند الله"³⁷¹

فهذا المعنى الذي وضعه الإمام -رحمه الله- عند تفسير (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) يناسب مع سياق الآية والسورة؛ لأن السورة محورها المركزي تحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومع ذلك في سباق الآية جاءت (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) وعطف عليها (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ) الثانية، فهذا السياق يدل على أن يراد بالثانية غير ما يراد بالأولى، وفي لحاق الآية أتت (بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) وهذا السياق أيضا يدل على أنهم جامعون بين الإيمان بالقران والإيمان بسائر الكتب المنزلة على النبيين عليهم الصلاة والسلام، فتبين أنهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من الذين آمنوا بكل وحي أنزل من عند الله.

³⁶⁹النسفي، المدارك، ٣٩١.

³⁷⁰النسفي، المدارك، ٤٢١.

³⁷¹ النسفي، المدارك، ٤٢١.

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[البقرة: ٣٨]

فسر الإمام كلمة هُدًى في الآية أنه رسول يرسله، أو كتاب ينزله، بدلالة سياقها حيث جاء قوله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} في مقابلة قوله تعالى (فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ) أي بالقبول والإيمان به. "372
(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)[البقرة: ١٦٥]
فالآية تدل بسياقها على أن الذين ظَلَمُوا هم الذين يتخذون من دون الله أندادا وأشار الإمام الى هذه الدلالة في الآية حيث قال: "(الَّذِينَ ظَلَمُوا) إشارة إلى متخذي الأنداد. "373 الذين ذكروا في الآية السابقة، ولأن إتخاذ الأنداد لله تعالى هو لظلم عظيم.

(وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[البقرة: ١٩٥]
اعتمد الإمام على دلالة سياق الآية في تعيين معنى النهي فيها فقال في تفسيرها: "والمعنى النهي عن ترك الانفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك. "374 حيث ورد سياق الآية في الإنفاق كما هو معلوم في نظمها.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)[البقرة: ٢٤٥]
بين الإمام المراد من (قَرْضًا حَسَنًا) في الآية أنه النفقة في الجهاد استنادا لدلالة سياق الآية فقال عند تفسيرها: " (قَرْضًا حَسَنًا) والمراد النفقة في الجهاد؛ لأنه لما أمر بالقتال في سبيل الله، ويحتاج فيه إلى المال، حث على الصدقة؛ ليتهايأ أسباب الجهاد. "375

372النسفي، المدارك، ٨٣/١.

373النسفي، المدارك، ١٤٨/١.

374النسفي، المدارك، ١٦٧/١.

375 النسفي، المدارك، ٢٠٢/١-٢٠٣.

المبحث الثالث: مظهر دلالة السياق في ترجيح الأقوال

المفسرون يبذلون كل جهودهم ليصلوا إلى تفسير آية، ولكن بسبب تفاوت أفهامهم ومناهجهم وما أحاطوا به من الروايات والآثار يختلفون فيها فتقع أقوال كثيرة مختلفة في آية واحدة. والذين يأتون من بعدهم يروون هذه الأقوال ويرجحون الأصح من بينها حسبما يقتضيه منهجه في الترجيح. والسياق أبرز وأقوى دليل في مثل هذا الترجيح. والإمام النسفي من الذين يستخدمون دلالة السياق في ترجيح الأقوال في تفسير الآيات. فهذه بعض النماذج من خلال تفسير سورة البقرة:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[

البقرة: ١٤٦]

اختلف المفسرون في مرجع الضمير الذي في (يَعْرِفُونَهُ) فذهب بعضهم إلى أن الضمير عائد إلى ما تضمنته الآيات السابقة من تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة وأن الذين أوتوا الكتاب كانوا يعرفون هذه الحقيقة. وذهب بعضهم إلى أن الضمير عائد إلى الرسول (ص) وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.³⁷⁶ وقال بعضهم إن الضمير عائد إلى القرآن وأنهم لا يشكون فيه كما لا يشكون في أولادهم من بين غيرهم.³⁷⁷

والإمام النسفي يسرد الأقوال الثلاثة ويرجح من بينهم القول الثاني بأن يستمد من دلالة السياق مستدلاً لما بعده من قوله تعالى: (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) ويأتي بقول عبد الله بن سلام من أنه لا يشك في نبوة محمد (ص) لأن التوراة ذكرت نعتة ولكن لا يدري ما فعلت والددة ابنه في غيابه.³⁷⁸ فهذا يدل على أن النسفي يرتبط بين تشبيه المعرفتين وبين مرجع الضمير من حيث إن في الآية يشبه الله تعالى معرفتهم في هذه المسألة بمعرفة أبناءهم وأن التشبيه بمعرفة الأولاد يستعمل في معرفة الناس بعضهم ببعض.

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[البقرة: ٢٣]

فسياق الآية يدل على أن رد الضمير في "مِثْلِهِ" إلى القرآن أولى من رده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأشار الإمام إلى ذلك، وقال عند تفسير الآية: "ورد الضمير إلى المنزل أولى... ، ولأن الكلام مع

³⁷⁶ الماوردي، النكت والعيون، ٢٠٤/١.

³⁷⁷ الرازي، مفاتيح الغيب، ١١١/٤.

³⁷⁸ النسفي، المدارك، ١٤١/١.

رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيباً، وذلك أن الحديث في المنزل لا في المنزل عليه وهو مسوق إليه... ولأن هذا التفسير يلئم قوله تعالى: (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ). "379

المبحث الرابع: مظهر دلالة السياق في رد على مذهب أهل البدعة والضلالة

يأتي السياق في مقدمة الدلائل التي اعتمدها الإمام في رد على مذاهب أهل البدعة والضلالة من المعتزلة والكرامية والجهمية ومثال ذلك ما يلي:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة: ٧]

فقال الإمام في تفسير هذه الآية: " وحاصل الختم والطبع: خلق الظلمة والضيق في صدر العبد عندنا، فلا يؤمن مادامت تلك الظلمة في قلبه، وعند المعتزلة إعلام محض على القلوب بما يظهر للملائكة أنهم كفار، فيلعنونه، ولا يدعون لهم بخير... والآية حجة لنا على المعتزلة في الأصلح فإنه أخبر أنه ختم على قلوبهم ولا شك أن ترك الختم أصلح لهم. "380

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) [البقرة: ٨]

وقال في تفسيرها: " والآية تنفي قول الكرامية: إن الإيمان هو الإقرار باللسان لا غير، لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم، وتؤيد قول أهل السنة: إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان. "381

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [البقرة: ١٥]

وقال في تفسيرها: " وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسألة الأصلح. "382

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٥]

وقال في تفسيرها: " والآية حجة على من جعل الأعمال إيماناً، لأنه عطف الأعمال الصالحة على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه. ولا يقال: إنكم تقولون: يجوز أن يدخل المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة، والله تعالى بشر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً، لأن البشارة المطلقة بالجنة شرطها

379 النسفي، المدارك، ٦٥١-٦٦.

380 النسفي، المدارك، ٤٦١.

381 النسفي، المدارك، ٤٨١.

382 النسفي، المدارك، ٥٣١.

اقتران الأعمال الصالحة بالإيمان، ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة، بل نثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، ثم يدخله الجنة. "383

(وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [البقرة: ١٢٤]

وقال في تفسيرها: "(قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) بسكون الياء حمزة وحفص أي لا تصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك أي أهل الكفر أخبر أن إمامة المسلمين لا تثبت لأهل الكفر وأن من أولاده المسلمين والكافرين قال الله تعالى: (وَبَارَكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) [الصافات: ١١٣] والمحسن المؤمن والظالم الكافر قالت المعتزلة هذا دليل على أن الفاسق ليس بأهل للإمامة قالوا وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة والإمام إنما هو لكف الظلمة فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر من استرعى الذئب ظلم ولكننا نقول: المراد بالظالم الكافر هنا إذ هو الظالم المطلق وقيل إنه سأل أن يكون ولده نبياً كما كان هو فأخبر أن الظالم لا يكون نبياً. "384

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ) [البقرة: ١٧٨]

وقال في تفسيرها: "والآية تدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل ولبقاء الأخوة الثابتة بالإيمان ولاستحقاق التخفيف والرحمة. "385

(وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة: ٢٥١]

وقال في تفسيرها: "ولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغلبة الكفار وقتل الأبرار وتخريب البلاد وتعذيب العباد. ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين) بإزالة الفساد عنهم وهو دليل على المعتزلة في مسألة الأصلح. "386

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَلُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة: ٢٥٣]

383 النسفي، المدارك، ٦٨١.

384 النسفي، المدارك، ١٢٨١.

385 النسفي، المدارك، ١٥٦١.

386 النسفي، المدارك، ٢٠٧١.

وقال في تفسيرها: " (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّاكُمْ) كرره للتأكيد أي لو شئت أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا إذ لا يجري في ملكي إلا ما يوافق مشيئتي وهذا يبطل قول المعتزلة لأنه أخبر أنه لو شاء أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا وهم يقولون شاء ألا يقتتلوا فافتتلوا (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) أثبت الإرادة لنفسه كما هو مذهب أهل السنة. 387

المبحث الخامس: مظهر دلالة السياق في ترجيح بعض القراءات

قد يرجح الإمام بعض القراءات على بعضها ومن مثال ذلك مايلي:

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) [البقرة: ٩٦]

أتت لكلمة حَيَاةٍ في الآية بالقراءتان ، قراءة على الحياة بالتعريف، وقراءة بالتنكير على حَيَاةٍ كما هي في الآية، وهذا السياق يدل على أن المراد بالحياة فيها حياة مخصوصة وهي الحياة المتطولة ورجح الإمام القراءة بالتنكير لأنها أوقع من قراءة على الحياة بالتعريف وهي قراءة أبي. 388

المبحث السادس: مظهر دلالة السياق في ترجيح بعض أسباب النزول

وقد يستدل الإمام بدلالة السياق في ترجيح بعض أسباب النزول، ومن مثال ذلك ما يلي

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) [البقرة: ٢٣]

فالتعبير بكلمة نزلنا دون أنزلنا يدل بسياقه أن المراد به النزول على سبيل التدريج والتنجيم مفرقا، وهذه الدلالة تعيين سبب نزول هذه الآية وذلك كما ذكره الإمام أن المشركين كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة فلو أنزله الله لأنزله جملة. 389

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ) [البقرة: ٢٢٩]

ورود كلمة مَرَّتَانِ في الآية يدل بسياقها على أن التطلاق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة وأن الجمع بين الطلقتين والثلاثة بدعة في طهر واحد لأن الله تعالى أمرنا في هذه الآية بالتفريق بين الطلقتين فتعيين بهذه الدلالة سبب نزول الآية وذلك كما نقله الإمام عند تفسيرها أن قالت أنصارية إن زوجي قال لا أزال أطلقك ثم أراجعك فنزلت (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ). 390

387النسفي، المدارك، ٢٠٨/١-٢٠٩.

388النسفي، المدارك، ١١٢/١.

389النسفي، المدارك، ٦٤/١.

390 النسفي، المدارك، ١٩٠/١.

المبحث السابع: مظهر دلالة السياق في تعيين أن سبب النزول لا يعني تخصيص الآية به

يعتبر السياق عند الإمام دليلاً لتعيين القاعدة أن سبب النزول لا يعني تخصيص الآية به، بل تبقى الآية في عمومها، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة: ١١٤]

فقال الإمام في تفسير هذه الآية: " وإنما قيل مساجد الله وكان المنع على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام لأن الحكم ورد عاماً وإن كان السبب خاصاً كقوله تعالى ويل لكل همزة والمنزول فيه الأخنس بن شريق {وسعى في خرابها} بانقطاع الذكر والمراد عن العموم كما أريد العموم بمساجد الله. 391"

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [البقرة: ١٧٨]

وقال في تفسير هذه الآية: "روي أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء في الجاهلية وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقلتن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى والاثنتين بالواحد فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاء الله بالإسلام فنزل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ) أي فرض (عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ) وهو عبارة عن المساواة وأصله من قص أثره واقتصه إذا اتبعه ومنه القاص لأنه يتبع عليه السلام المسلمون تتكافأ دماؤهم وبأن التفاضل غير معتبر في الأنفس بدليل أن جماعة لو قتلوا واحداً قتلوا به وبأن تخصيص الحكم بنوع لا ينفيه عن نوع آخر بل يبقى الحكم فيه موقوفاً على ورود دليل آخر وقد ورد كما بينا. 392"

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) [البقرة: ٢٠٧]

وقال في تفسير هذه الآية: "نزل في صهيبي حين أراده المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفراً كانوا معه فاشتري نفسه بما له منهم وأتى المدينة أو فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) يبييعها (ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) حيث أثابهم على ذلك. 393"

391 النسفي، المدارك، ١٢٢/١.

392 النسفي، المدارك، ١٥٤/١-١٥٥.

393 النسفي، المدارك، ١٧٥/١.

المبحث الثامن: مظهر دلالة السياق في إبراز تناسب الآيات وترباطها

وللسياق القرآني أثر في إبراز تناسب الآيات وترباطها، ومن النماذج التطبيقية في هذه المسألة عند الإمام في تفسيره:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) [البقرة: ٦]

فيبين الإمام تناسب الآيات وترباطها فيما بينها ويقول مثلاً عند تفسيره هذه الآية: " لما قدم ذكر أوليائه بصفاتهم المقربة إليه، وبين أن الكتاب هدى لهم، قفي على أثره بذكر أضدادهم، وهو العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا). "394

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) [البقرة: ٨]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: "افتتح سبحانه وتعالى بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أحبث الكفرة لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعاً ولذا أنزل فيهم إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار. "395

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) [البقرة: ١٧]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: " لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتنميماً للبيان ولضرب الأمثال في إبراز خفيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق تأثير ظاهر. "396

(أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) [البقرة: ١٩]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: " ثنى الله سبحانه وتعالى في شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح شبه المنافق في التمثيل الأول المستوقد ناراً وإظهار الإيمان بالإضاءة وانقطاع انتفاعه بانتفاء النار وهنا شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار

394 النسفي، المدارك، ٤٤١.

395 النسفي، المدارك، ٤٦١-٤٧.

396 النسفي، المدارك، ٥٤١.

بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصواعق. "397

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ٢١]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: " لما عدد الله فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المذكور فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ). "398

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ٢٣]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: " ولما احتج عليهم بما يثبت الوجدانية ويبطل الإشراك... عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يقرر إعجاز القرآن فقال: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا). "399

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٤]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: " لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون صدق النبي عله السلام قال لهم فإذا لم تعارضوه وبان عجزكم ووجب تصديقه فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب وعاند. "400
(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٥]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: " فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه بذكر المؤمنين وأعمالهم وتبشيرهم بقوله: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ). "401 وسنة الله في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب تنشيطا لاكتساب ما يزلف، وتنشيطا عن اقتراف ما يتلف.

397 النسفي، المدارك، ٥٧١.

398 النسفي، المدارك، ٦١١.

399 النسفي، المدارك، ٦٣١-٦٤.

400 النسفي، المدارك، ٦٦١.

401 النسفي، المدارك، ٦٧١.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[البقرة: ١٦٤]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: "ولما عجب المشركون من إله واحد وطلبوا آية على ذلك نزل إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ). "402

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)[البقرة: ٢٢١]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: "ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ). "403

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[البقرة: ٢٥٨]

ويقول عند تفسيره هذه الآية: "ثم عجب نبيه عليه السلام وسلاه بمجادلة إبراهيم عليه السلام نمرود الذي كان يدعي الربوبية بقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ) في معارضته ربوبية ربه. "404

402النسفي، المدارك، ١٤٧/١.

403النسفي، المدارك، ١٧٨/١.

404النسفي، المدارك، ٢١٢/١.

الخاتمة

ومن خلال دراسة موضوع دلالة السياق وتأثيرها في التفسير، على المستوى النظري العام، وعلى المستوى التطبيقي الخاص في تفسير النسفي للإمام أبي البركات النسفي سورة البقرة أنموذجاً، يمكن التوصل إلى العديد من النتائج، أهمها ما يلي:

السياق القرآني هو تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى.

دلالة السياق القرآني تعتبر من تفسير القرآن بالقرآن.

دلالة السياق القرآني معتبرة شرعاً، فقد استخدمها النبي - صلى الله عليه وسلم، وصحابته - رضي الله عنهم - من بعده، ثم تتابع العلماء على استخدامها.

اتفق القدماء والمعاصرون على أهمية دلالة السياق القرآني في تفسير كلام الله - عز وجل - وأن إهمالها موطن للزلل والخطأ في التفسير.

أول من أقدم على دلالة السياق هو الإمام الشافعي رحمه الله.

اتخذ الإمام النسفي - رحمه الله - السياق القرآني أصلاً من أصول التفسير، وطبق ذلك عملياً من خلال تفسيره كما هو ظهر في هذا البحث الموجز.

أن لدلالة السياق آثار كثيرة منها:

1. ترجيح وتضعيف بعض القراءات

2. نقد بعض الإسرائيليات.

3. رد على أهل البدعة والضلالة

4. كشف المعنى المراد.

5. بيان المراد من المشترك اللفظي.

6. تضمين المعاني.

7. تحديد المعنى المراد من حروف المعاني.

8. تحديد مرجع الضمير.

9. بيان الحذف وتقديره.

10. ترجيح بعض أسباب النزول.

11. إظهار مناسبة كلمات وجمل وآيات ومقاطع وسور القرآن الكريم.

12. الترجيح والتضعيف بين الأقوال.

ومن أهم ما أوصي به إخواني الباحثين في مجال الدراسات القرآنية:

1. دراسة في دلالة السياق بتوسع تعتبر دراسة في بلاغة القرآن الكريم.

2. الدراسات التطبيقية في دلالة السياق القرآني، فهي كفيلة بالفائدة وتكوين الملكة التفسيرية عند

الباحث.

3. الدراسات التطبيقية لدلالة السياق في باقي سور القرآن الكريم، من تفسير النسفي لإثراء

المكتبة القرآنية بمنهج جديد في تفسير القرآن الكريم، لها دور بارز في بيان إعجاز القرآن الكريم

في جوانب عديدة، وإبراز هدايات القرآن الكريم التي تبين سبيل الرشاد والصالح والفلاح في

الدارين.

وفي الختام أسأل الله أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا،

ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يجعله حجة لنا لا علينا. إنه ولي ذلك

والقادر عليه.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.
- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي. طبقات الفقهاء. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الرائد العربي، ١٣٩٠/١٩٧٠.
- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. الموافقات. تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن عفان، ١٤١٧/١٩٩٧.
- أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي. كشف الأسرار. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي. كنز الدقائق. تحقيق: سائد بكداش. بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٣٢/٢٠١١.
- أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي. مدارك التنزيل وحقائق التأويل. تحقيق: يوسف علي بديوي. بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٩/١٩٩٨.
- أبو الحسن علاء الدين بن محمد البعلي. القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية. تحقيق: عبد الكريم. المكتبة العصرية، ١٤٢٠/١٩٩٩.
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي. أسباب نزول القرآن. تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان.
- أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي. الفوائد البهية في تراجم الحنفية. تحقيق: محمد بدر الدين الحلبي. مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٤/١٩٨٣.
- أبو الفتح محمد بن علي بن دقيق العيد. شرح الإمام بأحاديث الأحكام. تحقيق: محمد خلوف العبد الله. سوريا: دار النوادر، ١٤٣٠/٢٠٠٩.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. ١٤٢٠/١٩٩٩.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة. دار طيبة، ١٤٢٠/١٩٩٩.
- أبو الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني، تاج التراجم. تحقيق: محمد خير رمضان يوسف. دمشق: دار القلم، ١٤١٣/١٩٩٢.

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. بيروت: دار القلم، ١٩٩٢/١٤١٢.

أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري. أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨/١٤١٩.

أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري. الأضداد. تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٧/١٤٠٨.

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مكة المكرمة: دار التربية والتراث.

أبو سعد، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني. الأنساب للسمعاني. تحقيق: جماعة من العلماء. الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد الدكن، ١٩٦٢/١٣٨٢.

أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي. البحر المحيط في أصول الفقه. دار الكتبي، ١٩٩٤/١٤١٤.

أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي. البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧/ ١٣٧٦.

أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بيروت: دار صادر، ١٩٩١/١٤١١.

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري. تحقيق: مصطفى ديب البغا. دمشق: دار ابن كثير، ١٩٩٣/١٤١٤.

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب. بيروت: دار إحياء التراث، ٢٠٠٠/١٤٢٠.

أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي. التيسير في القراءات السبع. تحقيق: خلف حمود سالم الشغدلي. السعودية: دار الأندلس، ٢٠١٥/ ١٤٣٦.

أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي. سنن الترمذي. تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦/١٤١٦.

أحمد ابن تيمية. مقدمة في أصول التفسير. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٠/ ١٤٩٠.

أحمد بن تيمية. مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ٢٠٠٤/ ١٤٢٥.

- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر، ١٩٧٩\١٣٩٩.
- أحمد بن محمد الأدنه وي. طبقات المفسرين. تحقيق: سليمان بن صالح الخزي. السعودية: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٧\١٤١٧.
- أحمد خليل، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن. مصر: الوكالة الشرقية للثقافة، ١٩٥٤\١٣٧٣.
- إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٥/١٣٧٤.
- تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي المصري الحنفي. الطبقات السنية في تراجم الحنفية. تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. السعودية: دار الرفاعي، ١٤١٠/١٤٠٣.
- جلال الدين السيوطي. أسرار ترتيب القرآن. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. القاهرة: دار الفضيحة، ١٤٢٢\٢٠٠٢.
- حسين بن علي بن حسين الحربي. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية. رسالة ماجستير- كلية أصول الدين. جامعة الإمام. الإشراف: الشيخ مناع القطان. السعودية: دار القاسم. ٢٠٠٨\١٤٢٩.
- خالد بن عثمان السبت. الخلاصة في تدبر القرآن الكريم. القاهرة: دار الحضارة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦\١٤٣٧.
- خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي. الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢/١٤٢٣.
- زكريا بن محمد بن محمود القزويني. آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: دار صادر.
- زين الدين بن إبراهيم بن محمد. البحر الرائق شرح كنز الدقائق. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤\١٤١٨.
- سحر محمد فهدى كردية، منهج الإمام النسفي في القراءات وأثرها في تفسيره. غزة: رسالة ماجستير. الإشراف: الدكتور عبد الرحمن يوسف الجمل في قسم التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية.
- سراج الدين عمر بن إبراهيم بن نجيم الحنفي. النهر الفائق شرح كنز الدقائق. تحقق: أحمد عزو عناية. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢\١٤٢٢.

- سعيد بن محمد الشهراني. السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة. السعودية: كرسي القرآن وعلومه- جامعة الملك سعود، ٢٠١٥/١٤٣٦.
- سيد قطب ابراهيم حسين. في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق، ١٩٩٢/١٤١٢.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي. الكاشف عن حقائق السنن. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز.
- شمس الدين أبو عبد الله الذهبي. سير أعلام النبلاء. القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٦/١٤٢٨.
- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين. الإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥/١٤٠٥.
- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. الهند: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٩٧٢/١٣٩٢.
- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. معجم البلدان. بيروت: دار صادر ١٩٩٥/١٤١٥.
- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: علي عبد الباري عطية. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥/١٤١٥.
- شوقي أبي خلیل، أطلس التاريخ العربي والإسلام. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦/١٤٢٥.
- عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٤/١٣٩٤.
- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا. ٢٠٠٠/١٤٢٠.
- عبد الفتاح محمود المثني. نظرية السياق القرآني. عمان: دار وائل، ٢٠٠٨/١٤٢٩.
- عبد الله خضر حمد. الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية. بيروت: دار القلم، ١٤٣٨/٢٠١٧.
- عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمر وتقي الدين المعروف بابن الصلاح. معرفة أنواع علم الحديث. تحقيق: عبد اللطيف الهميم. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢/١٤٢٣.
- عز الدين ابن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب. بيروت: دار صادر، ١٩٨٠/١٤٠٠.
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني. التعريفات. تحقيق: جماعة من العلماء. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣/١٤٠٣.
- عمر رضا كحالة. معجم المؤلفين. بيروت: مكتبة المثني دار إحياء التراث العربي.

- عمر رضا كحالة. **معجم المؤلفين**. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- مجموعة العلماء والباحثين. **الموسوعة العربية الميسرة**. الإشراف: حسين محمد نصار. بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠١٠/١٤٣١.
- محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. بيروت: دار ابن حزم، ١٤٤١/٢٠١٩.
- محمد السيد حسين الذهبي. **التفسير والمفسرون**. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٦/٢٠٠٥.
- محمد السيد حسين الذهبي. **التفسير والمفسرون**، القاهرة: مكتبة وهبة.
- محمد الطاهر بن عاشور التونسي. **التحرير والتنوير**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣/١٤٠٣.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. **بدائع الفوائد**. بيروت: دار الكتاب العربي.
- محمد بن إدريس الشافعي. **الرسالة**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨/١٣٥٧.
- محمد بن عبد الله بن بهادر بدر الدين الزركشي. **البحر المحيط في أصول الفقه**. ١٩٩٤/١٤١٤.
- محمد بن عبد الله دراز. **النبأ العظيم**. نظرات جديدة في القرآن الكريم. دار القلم، ٢٠٠٥/١٤٢٦.
- محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمن. **فتح القدير**. دمشق: دار ابن كثير، ١٩٩٤/١٤١٤.
- محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة. **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**. مكتبة السنة.
- محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي. **تفسير البحر المحيط**. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمد عبد العظيم الزرقاني. **مناهل العرفان في علوم القرآن**. دمشق: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- محمد عليم الإحسان المجددي البركتي. **قواعد الفقه**. الباكستان: الصدف ببلشرز، ١٤٠٧/١٩٨٦.

محمّد مرتضى الحسيني الرّبيدي. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: جماعة من المختصين. الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٣٨٥/١٤٢٢.

محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: مصطفى حسين أحمد. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧/١٤٠٧.

محيي الدين أبو محمد عبد القادر القرشي الحنفي. الجواهر المضئية في طبقات الحنفية. تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة: دار هجر، ١٩٩٣/١٤٢٣.

مساعدة بن سليمان بن ناصر الطيار. شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية. دار ابن الجوزي. ٢٠١٧/١٤٣٨.

مصطفى عبد الله حاجي خليفة. كشف الظنون. تحقيق: إكمال الدين إحسان أوغلي. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٢١/١٤٤٣.

منيع بن عبد الحليم محمود. مناهج المفسرين. القاهرة: دار الكتاب اللبناني، ٢٠٠٠/١٤٢١.

ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٨/١٤١٨.

يوسف بن تغري بردي بن عبد الله. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. تحقيق: محمد محمد أمين. مصر: الهيئة المصرية العامة.

السيرة الذاتية

تعلم دراسات العلوم الإسلامية وحفظ القرآن الكريم كاملا في تركستان الشرقية، على أيدي الأساتذة الأعزاء الكرام من العلماء التركستانيين. ثم رحل الى مصر لتوسيع معرفته والتقدم فيها وبقي هنا سنة ونصفها، وفي أثناء الإقامة قد حضر الى مقرئ القراءات العشر الصغرى عمر رجب محمود علي، وقرأ عليه القرآن الكريم كاملا غيبا من حفظه، بقراءة الإمام عاصم الكوفي براوييه شعبة وحفصة من طريق الشاطبي، فأجازه إجازة صحيحة معتبرة عند علماء القراءة، ومع ذلك إلتحق بمجالس العلم وحلقاته ودوراته التي يلقي فيها العلماء المصريون الأزهريون محاضراتهم القيمة ودروسهم المفيدة ، وانهل من حوضهم العلمي واستفاد من علمهم استفادا تاما، إلا لم يستطع ان يلتحق بجامعة الأظهر بسبب سياسي آنذاك، وبهذا السبب رحل الى تركيا عام ٢٠١٧ والتحق بجامعة إسطنبول صباح الدين زعيم في قسم علوم إسلامية و تخرج منها في عام ٢٠٢١، وفي نفس هذه السنة التحق بجامعة يالوفا في دراسات عليا من قسم التفسير وتخرج منها عام ٢٠٢٤.

ÖZGEÇMİŞ

Doğu Türkistan'ın değerli alimlerinin seçkin hocalarından İslami ilimlerle ilgili ilimler öğrendi ve Kur'an-ı Kerim'in tamamını ezberledi. Daha sonra bilgi genişletmek ve ilerletmek amacıyla Mısır'a gitti ve burada bir buçuk yıl kaldı. Mısırda kaldığı süre boyunca kıraat alımlarından Ömer Recep Mahmud Ali Hoca'ya Kur'an'ın tamamını ezberden okudu. İmam Asım el-Kofi'nin, Şu 'be ve Hafsa tarafından Şatibi aracılığıyla rivayet edilmiş senet ile hafızlık belgesi aldı yansıra Mısırlı Ezher'i alimlerinin değerli derslerine katıldı ayrıca ilim şuralarına, seminerlerine ve kurslarına katılarak onların ilim havuzlarından faydalandı ve bilgilerinden tam anlamıyla istifade etti ancak o dönemdeki siyasi nedenlerden dolayı Ezher Üniversitesi'ne kayıt edilmedi 2017 yılında Türkiye'ye geldi ve İstanbul Sabahattin Zaim Üniversitesi İslami İlimler Bölümünde okudu. 2021 yılında mezun oldu . Aynı yıl Yalova Üniversitesi temel İslam bilimleri Tefsir bölümünde yüksek lisans okudu . 2024 yılında mezun oldu.